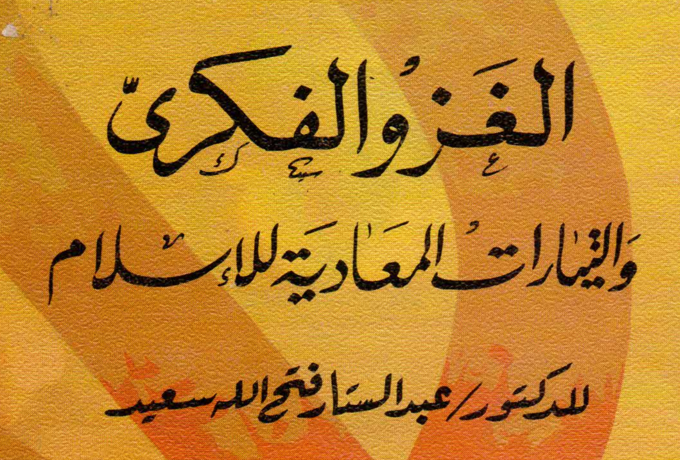

الغزو الفكري
والتيارات المعادية للإسلام
للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد


الوفاء
للطباعة والنشر

هذا الكتاب

قديماً وحديثاً : كان وما زال لأعداء الإسلام تيارات معادية له تحمل بين ثناياها الفكرة والرأى والحيلة والخدعة والشبهة .

ولقد كانت تلك الثقافات والأفكار الغربية تدور جميعها حول الإسلام عقيدةً ونظاماً حتى نجحت فى نشر سمومها في المجتمع الإسلامي .

وما أكثر خطورتها فهي تتجدد دائماً عبر الأجيال بخطط مدروسة ذات اتجاهات متعددة .

وكتاب الغزو الفكرى : يبين لنا تلك الأساليب بمختلف اتجاهاتها ، وماعاد على الإسلام والمسلمين بسبب تهيئة المناخ لها ، فكانت فوضى الانحلال والانحراف في الدين والخلق والضمير والرأي !.

لذلك : دعا المؤلف فيه إلى وقف سريان هذا الغزو ، وطالب أصحاب الاتجاه الإسلامي - على اختلاف مواقعهم - بالعمل الجاد في مجال التربية والتعليم ، والفكر والثقافة ، من أجل إيجاد الفرد المسلم ، والبيت المسلم ، والأمة المسلمة ، باعتبار الإسلام منهجاً كاملاً من حيث هو عقيدة ، وشريعة ، ونظام ، شرّفنا الله به وهدانا إليه .



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦

الغزو الفكري

والتيارات المعادية للإسلام

للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الطبعة الأولى : ١٣٩٨ هـ

الطبعة الثانية : ١٣٩٩ هـ

الطبعة الثالثة : ١٤٠١ هـ

الطبعة الرابعة مزيدة ومنقحة

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

الطبعة الخامسة

١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص.ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأكمل لنا الدين ، وأتمّ علينا النعمة ، ورضى لنا الإسلام دينا ممدوداً إلى يوم الدين ، وأرسل محمدا بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى تركنا على المحجّةِ البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك ، فصلّ اللهم وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان ..

أما بعد :

فمن الحقائق المتواترة ــ ديناً وتاريخاً ــ أن « **الأمة الإسلامية** » نمط فريد فى الدهر ، أخرجها الله تعالى للناس من خلال كتابه المعجز ، ونبيه المرسل ، ودينه القيم .

ولم تكن القبائل العربية المتناحرة تملك مقدّمات هذه الأمة ، ولا مقوِّمات وجودها ، حتى في خيال شعرائهم الذين كانوا في كل واد يهيمون ، فضلاً عن درجة هذا الوجود العالمى المدهش ، الذى تأسست به حضارة ربانية باذخة ، وصار فيه لأمتنا مقام القيادة والإمامة العالمية قرونا متتابعة .

ومن هنا نشأ ــ فى الفكر والواقع ــ **تلازم حتمى بين أمتنا والإسلام** ، باعتباره الروح الذى أمدها بالحياة ، والنور الذى أضاء لها طريقها فى ذاتها ، وفى صراعها الدائم من أجل البقاء والاستمرار ، والتفوق والتفرد ، فضلا عن أنه دينها الذى يحقق عبوديتها لله الواحد القهار ، وهى قضية وجودها ، بل وظيفة النوع الإنسانى التى خلق من أجلها .

وبقدر ما تعى أمتنا هذه الحقيقة يكون حظها من النجاح فى صراع المناهج والأمم ، وعلى قدر ماتنسى تتفشى فى جنباتها الأوجاع المزعجة ، حتى تعود إلى وعيها وأصولها !!.

بيد أن الناظر فى حركة التاريخ البشرى ، وقوانين الاجتماع ، وسنن التداول بين الأمم ليأخذه العجب العجاب من أحوال المسلمين المعاصرين ، ومايشيع فى حياتهم من « **ظواهر** » محيّره ، غير مسبوقة فى تاريخ الناس ، ولا معهودة من أحوال البشر !!.

● فالمعهود أن تنحسر الحضارات تدريجاً ، حين تتصادم بالجديد المفيد من الحقائق ، والتجارب ، والأفكار .. ثم تندثر جملة حين تفقد مقومات وجودها واستمرارها ، مصداقاً للقانون الإلهى المتكرر : ﴿ .. **فأمّا الزَّبَدُ فيَذْهب جُفَاءً ، وأمّا ماينفعُ الناسَ فَيَمْكُثُ فى الأرض** .. ﴾[1] سورة الرعد : ١٧ .

ولقد بادت حضارات كثيرة ، وانطوت أممها ، أو تحولت إلى

(١) الزبد: هو القذر والرغوة التى تكون طافية فوق السيل ونحوه، وجفاء: باطلا مرميا به.

وجود آخر مبتوت الصلات بماضيه ، كالحضارة المصرية القديمة ، وحضارة الفرس قبل الإسلام ... وغير ذلك كثير .

ولكن المسلمين المعاصرين قد خالفوا هذا المعهود ..!

فهم الأمة الوحيدة فى الأرض ، التى نُحِّيت عن القيادة والإمامة ، وأُسْقِطت عن مدارج الحضارة ، مع أن مقومات وجودها لاتزال قوية شامخة .

فالقرآن العظيم ، والسنة المطهرة ، والشريعة الإلهية بكمالها وتمامها ، وهدى السلف الصالح ، والأصول والقواعد التى بناها رجال كبار — عبر جهود خارقة — فى الدين ، والعلوم ، والفكر .. كل ذلك لايزال حيًّا نابضاً ، وسبَّاقاً غلّاباً فى كل مواطن الحياة ، وفى كل صراع بين جديد المذاهب ، والمناهج ، والأفكار .

ثم « **الأمة المسلمة** » ذاتها لاتزال قائمة متكاثرة ، بل ومتمايزة فى الأرض ، لم تنسلخ عن دينها جهرة ، ولم تتحول عنه إلى دين آخر ، ولم يذب كيانها البشرى فى أمم وشعوب أخرى ، كما حدث لغيرنا قديماً وحديثاً .!!

ورغم هذا كله أصيبت هذه الأمة فى مقاتلها ، فكيف ؟!!

● وأيضاً فالمعهود من تاريخ الأمة المسلمة ذاتها أنها كانت تغشاها فترات حالكة ، تكاد تعصف بها عصفاً ، ولكنها فى كل مرة كانت تسارع إلى الاستفاقة — تحت مطارق المحن — وتستعيد حقيقتها الضائعة بلا تسويف ، ولا تخطىء الطريق إلى راية الإسلام ، وبذلك

تنجو من الخطر الماحق ، ويرتد الأعداء خاسرين ، كالحملات الصليبية القديمة ، أو يدخلون فى دين الله طائعين كالتتار وأمثالهم .

وهنا أيضاً يخالف المسلمون المعاصرون المعهود من تاريخهم !

ففى هذه **الجولة الأخيرة** من الصراع طالت سكرتهم ، وطاشت فكرتهم ، وأمعنوا فى الانحدار والتردى ، رغم المحن الهائلة ، التى تكاد تقتلعهم من جذورهم ، لولا بقية من لطف الله عز وجل !!

نعم حاول « **جمهور الأمة المسلمة** » أن يتشبث بدينه العظيم فى ساعات العسرة ، ولكن « **القوى الشريرة** » التى طرأت على قيادة أمتنا قد أجهضت هذه المحاولات دائما ، ولم تسمح بها إلا مجرد طوق نجاه ، لامنهج حياة ، أو وسيلة تحريض ومقاومة ، لاشريعة تطبيق ومعايشة ...!!

بل كان أعجب شىء فى تاريخنا كله ، أن هذه القوى العاتية ــ حين تمكنت ــ غدرت بأمتنا غدراً غير مسبوق ، إذ انطلقت تركض بها ركضاً على عكس دينها وطريقها ، وفى خطوط مبتدعة ، رسمها أعداؤنا بتدبير حقود ، وزخرفت بشعارات خدّاعة خاطئة !!

* * *

لقد كنت فى أوائل الشباب تنتابنى حيرة شديدة من هذه الظواهر المزعجة ، والتى وصلت بالمسلمين إلى مايشبه « **الرِّدَّة الصامتة** » فى شتى ميادين الحياة ، وصبغت حياتهم بغير صبغة الله

مثل :

- شيوع الاستخفاف بقيم الدين وشرائعه فى الجملة !
- اعتناق كثير من المثقفين مذاهب شاذة ، أو أنماط حياة ضالة ، كالشيوعية الملحدة ، أو النمط الغربى الانحلالى !!
- الحكم بالقوانين الوضعية الوافدة ، ثم احتراف وضع القوانين ولو صادمت الإسلام جهرة ، كقوانين الربا ، والخمر ، مع إهدار الحدود الشرعية جملة واحدة !!
- تبرج المرأة المسلمة فى الشوارع والمجامع كتبرج الجاهلية الأولى ، بل أسوأ بما استحدث من وسائل الزينة والثياب ، والحلى والتصاوير !!
- شيوع أماكن الفاحشة كالملاهى والمراقص ، ونوادى القمار والفجور ، وشواطىء العرى والمجون ، ووسائل الإعلام والإعلان والترفيه ، التى استخدمت المرأة وسيلة إفساد وإثارة ، وتهييج للغرائز الشهوانية ، فى حماية القوانين الوضعية الساقطة ، التى دمرت مظلة الأخلاق الإسلامية ، وهدمت الآداب والفضائل الكريمة التى توارثها المسلمون ، حتى فى عصور ضعفهم وانحطاطهم المادى !!

ولقد كنت أتساءل في حيرة مفزعة :

- متي .. وأين .. وكيف أدخل هذا البلاء الماحق على أمتنا ؟!
- وبأى قوة استقر واستمر ..؟!
- ولماذا يمضى بين المسلمين ــ الآن ــ فى صمت وهدوء ، رغم

مصادمته ومناقضته لصريح الإسلام والقرآن ؟!

- بل كيف استعلن هذا كله استعلاناً غير مسبوق فى تاريخ المسلمين ، حتى صار كأنه « المعروف » وما عداه هو « المنكر » :
- إنه الآن هو « **الأصل** » الذى تتأسس عليه « **الدولة** » فى بلاد المسلمين !
- وتقوم « **حكوماتهم** » المتعددة المتعاقبة على حمايته !
- ثم تجعله « **القانون** » الملزم لهم !
- و « **العرف** » العام النافذ فيهم ..!
- وبأى شىء ...؟!

بسلطان الحكومة ، وبقوة شرطتها ، وتحت حراسة جيوشها ، ـــ من أبناء المسلمين ـــ وبدعم من أموالهم وثرواتهم ..!!

وقد تبلغ الخديعة أقصاها حين يُعْلَن ذلك باسم « **الأمة** المسلمة » على لسان طاغية مستبد جهول ، أو على لسان فريق من الناس خانوا أمانة النيابة عن الأمة ، **فيما يزعمونه بالمجالس** « **التشريعية** »!!

وأعترف أننى لم أكن أملك لأسئلتى الحائرة جواباً ، ولا أعرف لعلة أمتى أسبابا ، بل إن القضية كانت تبلغ غاية التعقيد فى نفسى إذا مضيت فى التساؤل :

ـــ أهذا شىء فرضه علينا الكفار الغزاة فرضاً ؟!

ـــ أم هو اختيار المسلمين لأنفسهم ..؟!

ذلك لأن أقرب شيء إلى الجواب أن يقال « **مستحيل** » .
فلا الكفار بقادرين على فرض باطلهم بهذا المقدار ..!
ولا المسلمون بقابلين هذا كله عن طواعية واختيار .!

ولكن هذا « **المستحيل** » كان هو الواقع الثقيل ، الجاثم على أنفاس الأمة، والممتد كالسرطان الرهيب إلى شعب حياتها : فى السياسة والقانون ، والاقتصاد والاجتماع، والثقافة والتعليم ، والصحافة والإعلام .. بل فى دقائق الأشياء كألفاظ التحية ، وطرائق الكلام والطعام ... الخ .

* * *

كانت « **الردة التركية** » من قبل هى ذروة المأساة فى العالم الإسلامى ، حين تولى كبرها طاغية الترك ، وفرضها على أمتنا فرضاً ، تحت حراسة الكفار من أعدائنا ، والذين أرادوها مثالا يمكن تطبيقه وتكراره فى الأقاليم الإسلامية ، ونقله من الرأس إلى الأعضاء تباعا ، خاصة « **مصر** » التى صارت أمل المسلمين بعد إسقاط الخلافة ..!!

ولم تلبث مصر بدورها أن نكبت بحكم الطاغية البائد ، والذى كان تطويراً بالغ الخبث للردة السابقة ، وبدا واضحاً أنه يستحث الخطو لتدمير جذور الإسلام وبقاياه فى هذه الأمة ، ولينقلها ــ فى ضراوة فاحشة ــ إلى أخطر مراحل الردة ، حيث تصبح الأباطيل عقيدة ، والكفر فكرة ، والفسوق فلسفة ، والإلحاد مذهبا ومنهجا لحياة الناس ، أو على الأقل إلفا وعُرفا تتعايش معه الأجيال بلا نكير ..!!

فلم يكن غريباً ــ إذن ــ أن يَصبّ على دعاة النمط الإسلامى حرباً بالغة الهول ، اتهاماً وتلفيقاً ، وتعذيباً وتشريداً ، ونفياً وقتلاً ، وسجناً واعتقالاً .. حتى أهلكه الله بعاره وأوزاره ، وبما جرّه على أمتنا من هزيمة الدهر ، والتى كانت بحجم ماارتكبه من المظالم والجرائم !!

ثم بعد مهلك الطاغية ببضع سنين ــ **وكنا لانزال فى سجونه** ــ شاء الله تعالى أن نعاود الدرس والاطلاع ، بعد طول انقطاع وامتناع ، فأعددت « **دراسات عن غربة الإسلام** » ، كان هذا الكتاب ــ فى أصوله ــ جزءاً منها ، ولقد جاء بغير قصد منى جوابا لكثير من أسئلتى القديمة الحائرة ، وإنى لأرجو أن يكون ــ كذلك ــ جواباً عن أمثالها ، مما يتردد فى أعماق كل مسلم محب لدينه ، حين يمضى فى حياته ممزقا بين الواجب والواقع ، أو مؤرقاً بين حق شرفنا الله به ، وباطل وافد فى ركاب الكفار الغزاة ، مهما تبدى الآن ــ بعد رحيلهم ــ فى ثياب وطنية خداعة !!!

وخلاصة الجواب فى هذا الكتاب :

إن ماتموج به حياة المسلمين من فوضى وضياع ، سببه الأساسى هو : **تخريب « الشخصية الإسلامية »** ، ثم **تربية « طبقة بديلة »** مكانها ، خلفت الكفار فى ديار الإسلام ، وهى التى تمضى بالمسلمين ــ الآن ــ على خط « **الاستبدال** » المرسوم ، فى عهد « **الاستقلال** » المزعوم !!

ولم يتم ذلك عفواً قط ، وإنما كان عمداً وقصداً ، بعد تخطيط

بالغ الحقد ، وبغزو فكرى فاحش الوسائل والقصد ، انتهى بالأمة المسلمة إلى هذا المصير المروع ...!!

ولا سبيل إلى النجاة من هذه الهاوية إلا بأمرين متلازمين :

● بناء «الشخصية الإسلامية» من جديد على معايير الإسلام .

● مطاردة آثار هذا الوباء الوافد فى شعب الحياة جميعا .

* * *

إن حديثنا عن « الغزو الفكرى » ـــ إذن ـــ ليس ترفاً فكرياً ، ولا هو مجرد حديث عن تاريخ غَبَر ودَبَر ، ولا بكاء أو استبكاء على أطلال ودِمَن[1] .

وإنما هو تذكير لأجيالنا الحديثة ، بأصول الكارثة التى لم يشهدوا بداياتها ، وإن كانوا الآن يدرجون على آثارها ، ويتجرعون سمومها !!

وهو تعرية للجذور القاتلة ، التى استطال نباتها فى أرضنا ، تحت خديعة « الطبقة البديلة » ، لأنهم : « **من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا** .. »[2] .

إن (**أمتنا**) ليست ذكرى تاريخية ماضية ، وإنما هى حقيقة حاضرة ماثلة ، ويجب أن تعود إلى مقامها الأصيل فى قيادة القافلة

(١) الدمن جمع دمنة ، وهى : آثار الناس .
(٢) جزء من الحديث النبوى الذى رواه حذيفة (البخارى جـ٨ ص ٩٢ ـــ كتاب الفتن باب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ؟).

البشرية الحائرة ، بعد أن شردت بها حضارة المادة والإلحاد ، وتوشك أن تدمرها تدميرا ، بفسقها ، وترفها ، وصراعها الحيوانى الغليظ !!

وإن (ديننا) ليس منهجا مرحليا ، أدى وظيفته فى العصور الوسيطة ــ كما يزعم كهنة الإلحاد المادى ــ وإنما هو رسالة الله تعالى الموصولة ، ورحمته المهداة لكل العصور .

ولا خيار لأمتنا فى مهمة حياتها ، ولا فى رسالة ربها ، وأول الجد أن تخلع آثار الكفار من قلوبها وواقعها جميعا ، حتى تعود أهلاً للشرف العظيم الذى انتدبها الله تعالى إليه ، وكلفها به فى قوله الكريم : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمَّةً وَسَطاً لتكونوا شُهداءَ على النّاسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا ..** ﴾ سورة البقرة : ١٤٣ .

* * *

إن الساحة الإسلامية تموج ــ الآن ــ بصراع فكرى هائل ، ومهما تعددت الأسماء والأشكال فإنها تعود إلى نمطين اثنين ، لاسبيل بينهما إلى لقاء :

الأول : **النمط الإسلامي** للحياة بمعناها الشامل لكل شئون الدين والدنيا ..

الثانى : **النمط البشرى** الوضعى الدخيل المتعدد الأسماء والأزياء !!

وهذا النمط الأخير هو الذى يملك ــ مع الأسف ــ القوة والسلطان فى ديار الإسلام الآن .. ويشكل صخوراً عاتية فى طريق

عودة الأمة المسلمة إلى أصالتها ودينها ..!!

ولقد كان من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن هيّأ لها **دعاة صدق** ، قاموا فى وجه الموجات الوافدة ، وقاوموا آثارها بقوة الإسلام ، وجاهدوها جهاداً كبيراً بالقرآن ، ولم تذهب أصواتهم أدراج الرياح ، رغم المحن والآلام ، بل أحدثت دوياً هائلاً فى قلوب الأجيال الحديثة ، ودفعتهم إلى الإحساس بالتفريط ، والاستعداد النفسى للتغيير ، والإقبال البصير على دينهم العظيم ، والنفور العارم من الوباء الموروث عن الكفار ..!

وهذه « **ظاهرة** » جديدة بالغة الخطر والأثر ، لأنها أول البوادر العملية للبعث الإسلامى المرتقب بإذن الله ، رغم ثقل الباطل ، ورغم مظاهر الانحراف البادية للعيان فى كل مكان ..!

ولكن هذا البعث المرتقب لايتم — بداهة — بالأمانى والأحلام ، وإنما لابد أن يأخذ طريقه عبر سنن الله فى الكون والحياة ، بالعمل الدائب ، والتزكية النفسية البالغة ، والتربية الأخلاقية الصارمة ، والصبر الطويل ، والمعرفة البصيرة بالحق والباطل ، وأبعاد المعركة الهائلة بينهما ، ووسائلها وأساليبها المؤثرة ، وقديماً قيل بحق: « رحم الله امرأ عرف زمانه فاستقامت طريقته » !

بل ماأحكم الوحى الإلهى حين استهل القرآن الكريم بالأمر بالقراءة[1] ، والحديث عن العلم الربانى ، حتى تنبعث حركة

(١) صدر سورة العلق الآيات من ١ : ٥ .

الإسلام دائما من فهم واع ، وفقه بصير .

لذلك كان على دعاة « **النمط الإسلامي** » أن يبصّروا أمتهم دائما بعظمة الإسلام ، وجلال حقائقه وقيمه ، وأن يوقفوها على نكارة « **الأنماط الوافدة** » ، وما أحدثته من تخريب وتغريب ، وكيف أُدخلت علينا بالقهر والحيلة الدنيئة ، حتى تستيقظ خلايا أمتنا جميعا ، وتنشط لطرد الوباء الدخيل !!

وإذا كان من نصيحة هنا ، فلابد من **الأناة الطويلة** فى معالجة هذه الآثار ، لأنها غُرِست فى حياة أمتنا عبر سنوات وأحقاب ، ولا يتصور إزالة كيد قرون فى أشهر معدودة ، أو سنين محدودة ، وإنما ــ مع الجد والاجتهاد ــ لابد من إطالة النَّفَس ، والمعاناة ، حتى تتفاعل التربية خلال أجل يتفق مع السنن الإلهية ، لتقوم أمة مؤمنة ، ذات أخلاق راسخة ، تصلح لوراثة الأرض جميعا ، وانتزاع زمام الحضارة من كهنة المادة والإلحاد .

إن الإسلام قَدَرُ هذه الأمة .

والإسلام تربية والتزام .

ولا يقوم نظامه الفريد بخامل كسول ، ولا بطائش عجول ، لأنه « **النمط الوسط** » ، الذى يقوم على أتم عناصر الإحكام والتوازن ، والذى يتحقق به ــ دائما ــ وعد الله الحق :

﴿ ولقد كَتَبْنا فى الزَّبُور مِنْ بعد الذِّكْرْ أَنَّ الأرض يرثُها عِبَادِىَ الصالحون ، إنَّ فى هذا لبلاغاً لقوْمٍ عابدين ﴾[1]

(١) الأنبياء / ١٠٥ ــ ١٠٦ .

وبعد :

فهذه الطبعة الرابعة من هذا الكتاب ، وقد منحنى الله تعالى وقتاً لمراجعتها ، فجاءت ــ بفضل الله ــ أوفى من سابقاتها ، وأكثر تحقيقاً وتعليقاً ، وأتم ترتيباً وتبويباً ، وقد أضفت إليها زيادات مهمة ، ومنها هذه المقدمة ، التى حال دون كتابتها فى الطبعة الأولى سفر عاجل ، ثم حال دون نشرها فى الطبعة الثانية قدر غالب ، إذ نسيها الناشر ، وأعجلته نيران الحرب فى بيروت عن انتظارها ، أما الثالثة فكانت ضمن الأعمال الكاملة لمؤتمر الفقه الإسلامى .

فالله تعالى نسأل أن ينفع بها ، وأن يتقبل من عبده هذا الجهد فى سبيله ، وأن يجعل عملنا كله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يمن على أمتنا بالأمن والإيمان ، والخلاص مما نزل بها ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ...

كتبه الفقير إلى عفو الله
عبد الستار فتح الله سعيد

رمضان المبارك ١٤٠٧ هـ
مايــــو .... ١٩٨٧ م

فاتحة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله ورسوله ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن موضوع (الغزو الفكري) وما يلحق به من تيارات هو أخطر مايواجه العالم الإسلامي في حاضره ومستقبله ، خاصة ونحن نرى آثاره قد تغلغلت في القلوب والعقول والأذواق ، وملأت على المسلمين كل شعب حياتهم ، وتركتهم على وضع بئيس غير مسبوق في تاريخهم !

ومن ثم كان خليقاً بالدراسة الواعية ، والنظرة الفاحصة ، والرؤية المستوعبة ، حتى تتحدد أبعاده الرهيبة ، وتتضح ألغازه المتشابكة ، وتستبين ضراوته وجنايته على أجيال برمَّتها ، وقعت فريسة له ، ولاتزال سمومه تسري في كيانها كله ، ثم لاسبيل لها إلى الخلاص منه إلا بمعرفة بصيرة بالداء والدواء جميعا ، وإلا إذاشمَّرت عن الساق والساعد لتأخذ عليه طريقه من حيث سرى ، ثم استشرى حتى عمت به البلوى !

ومن البين أن جهد الفرد ـــ أو الأفراد ـــ لايغني كثيراً في مثل هذا الباب الخطير الذي تنوء به العصبة أولو القوة ، والذي يحتاج في مقاومته إلى جهد الأمة كلها ، وفي دراسته إلى عمل جماعي واسع النطاق والآفاق ، ليستطيع مقارعة هذا السيل العرم من الإلحاد والأباطيل ، ومنازلتها بأمضى من أسلحتها ، حتى يدمغها وينجي البشرية قاطبة من غوائلها .

ولذلك كان من حسن التوفيق اختيار هذا الموضوع ، وطرحه على قادة الفكر والفقه والرأي ، للبحث ، والدراسة ، والمناقشة ، والإفادة من خلال أعمال وتوصيات هذا المؤتمر الإسلامي الجامع[١] وإنه لاختيار يدل على فقه وبصر بالأزمة الحقيقية التي تطوق العالم الإسلامي ، والتي تشيع الخلل في أوضاع حياته عامة ، والفقه الإسلامي منها بوجه خاص ، وقد تعرض لأوفر نصيب من مؤامرات الغزو الفكري حتى عزل عن الحياة ، واستبدلوا به شرائع وأحكاماً لم يأذن بها الله تعالى ، كما سنبين في هذا البحث إن شاء الله تعالى .

هذا وإني أعترف سلفاً بقصوري في هذا الباب ، وما أقدمه فإنما هو جهد المقل الذي يحفزه شعور بخطورة التبعة ، وفظاعة الغزوة ، وفداحة النتائج التي تركتها الجاهلية المعاصرة في حياة المسلمين ، والذين يحتاجون الآن إلى كل صوت يوقظ وينبّه ، ويدعو فلولهم في أخراهم ليجتمعوا من جديد حول « **راية القرآن** » ، بعد أن فاتهم

---

(١) شارك المؤلف بهذا البحث في أعمال مؤتمر الفقه الإسلامي الأول الذي نظمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمدينة الرياض في غرة ذي القعدة سنة ١٣٩٦ هـ .

صوت النذير العريان ، حتى اجتاحهم عدوهم ، وفتنهم عن صميم دينهم[1] !!

وسيكون هذا البحث في أربع نقاط أساسية : وهى

أولا : تمهيد عام حول معنى الغزو الفكرى

ثانيا : غزو قديم

ثالثا : طور خبيث

رابعا : مراحل الغزو الفكرى

ثم نذكر بعض النتائج والمقترحات ؛ فنقول وبالله التوفيق :



---

(١) وقد جاء هذا في صحيح الحديث ، عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما مثلي ومثل مابعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : ياقوم إني رأيت الجيش بعينيَّ ، وإني أنا النذير العُريان فالنجاءَ . فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ماجئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » (البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) . جـ ٩ ص ١١٥ .

أولا

تمهيد عام

« **الغزو الفكري** » تعبير دقيق بارع ، يصور خطورة الآثار الفكرية التي قد يستهين بها كثير من الناس ، لأنها تمضي بينهم في صمت ونعومة ، مع أنها حرب ضروس لاتضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير ، أو قتيل ، أو مسيخ ، كحرب السلاح أو هي أشد فتكا .

وهذا التعبير على حداثة مبناه إلا أنه قديم المدلول والمعنى ، وتتفاوت الأمم والجماعات فيه من حيث الدرجة لا النوع ، ذلك لأن الجماعات البشرية تعيش أبداً متنافسة في سبيل هدف ما : كالاعتقاد حقاً أو باطلاً ، وكالتفوق المادي أو الأدبي ، وحب السيادة والاستئثار بالمنافع، ونحو ذلك مما عبر عنه القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز : ﴿ **أن تكون أُمّة هي أرْبَى مِنْ أمّة** ﴾ النحل : ٩٢ .

ومن ثم تبذل كل أمة غاية جهدها لكسب هذا الصراع باليد والسلاح ، أو بالفكر واللسان ، أو بأي من أنواع المؤثرات الأخرى التي زينت للناس ، كالمال هدية أو رشوة ... الخ .

« **فالغزو الفكري** » واحد من شعب الجهد البشري المبذول ضد عدو مّا لكسب معارك الحياة منه ، ولتذليل قياده ، وتحويل مساره ، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتياً إذا أمكن ، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب ، وإن كان — في نفس الوقت — هو أقصى درجات نجاح الغزاة .

وسلاح **هذا الغزو هو** : الفكرة ، والكلمة ، والرأي ، والحيلة ، والنظريات ، والشبهات ، وخلابة المنطق ، وبراعة العرض ، وشدة الجدل ، ولدادة الخصومة ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف أو الصاروخ في أيدي الجنود ، والفارق بينهما هو نفس الفارق بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديماً ، وحديثاً .

ويتميز « **الغزو الفكري** » بالشمول والامتداد ، فهو حرب دائمة دائبة ، لايحصرها ميدان ، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعاً ، وتسبق حروب السلاح ، وتواكبها ، ثم تستمر بعدها لتكسب ماعجز السلاح عن تحقيقه ، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين ، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه ، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه ، أو يصبح امتداداً ذليلاً لهم ، بل ربما تبلغ حداً من الإتقان يصل بها إلى أغوار النفس ، فتقلب معاييرها ومفاهيمها ، وتشكل لها أنماطاً جديدة في السلوك والأخلاق والأذواق ، إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها بتبعيته ، ويراها شرفاً خليقاً بالرضا والشكران أي « **أن الرَّمِيَّة تحتفي بالرامي** » كما

قال الشاعر[١] .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن كل جماعة بشرية (قبيلة أو أمة ، أو دولة .. الخ) قد عرفت هذا اللون من الغزو ، واستخدمته في سبيل كسب معارك حياتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، بل والعسكرية ذاتها .

وقصص **الأنبياء عليهم السلام** أبلغ شاهد على ضراوة ماواجهوه من هذه الحروب الفكرية ، التي قادها شياطين الإنس وبرعوا في وسائلها من : إرجاف ، وتشنيع ، واختراع النقائص ، وإلصاق التهم ، وإثارة الجدل ، وإطلاق الشبهات ، واقتراح المعجزات تعجيزاً ، وكثرة السؤال عناداً ، حتى أساليب الاستهزاء والاستخفاف والاستضحاك لم تفتهم في هذا المجال ، بغية أن يسقطوا عن الرسل الأكرمين مايحيطهم من هالات القداسة ، والرزانة والكمال !

الغزو بالحق :

بيد أن هذا القصص نفسه يعطينا الوجه الآخر للقضية ، فيقدم لنا المبادىء والأصول ، والوسائل والأساليب الصحيحة للعمل

(١) هذا عجز بيت قاله الشاعر شوقي في روايته الشعرية عن الملكة المصرية القديمة « كيلوباترا » وفيها تصوير دقيق لغفلة الأمم ، وقد عرفت أمتنا للأسف هذا النمط ، ومن أبرز أمثلته ماجاء في كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » للدكتور طه حسين ، وما كتبه ملاحدة الأتراك ، كما سنبين بإذن الله ، ولايزال يكتبه ويردده ببغاوات الماركسية وأمثالهم ، ويزعمونه ثقافة ، وتقدمية !!

الفكري القائم على الحق ، الهادف إلى خلاص البشر مما هم فيه من ضلالة ، وقيادتهم إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ، بلا طلب لمجد شخصي ، أو غلب قومي ، أو شيء مما يصطرع عليه وحوش البشر .

ولقد كان من تمام حكمة الله تعالى أن جعل حجة الرسالة الخاتمة معجزة تخاطب القدر الثابت في الإنسان ، على اختلاف الأجيال ، فكان القرآن العظيم خطاباً للعقل والفكر ، يعتمد على الدليل والبرهان ، بل يوجب الفقه ، والنظر ، ويحض على التيقن والاستدلال ، ويطاول خصومه ويطالبهم بالحجة حتى في دعواهم الباطلة عن تعدد الآلهة : ﴿ .. **أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إنْ كنتُم صادقين** ﴾ النمل : ٦٤ .

﴿ **قل أرَأيْتُم ماتَدْعُون مِنْ دون الله أرُوني ماذا خلَقُوا مِنَ الأرض ؟ أمْ لهم شِرْك في السموات ؟ ائتُوني بكتاب مِنْ قبْل هذا أوْ أثَارةٍ مِنْ علم إنْ كنتم صادقين** ﴾ الأحقاف : ٤ .

لذلك كان محور هذا الكتاب المعجز في غزو الجاهلية ، واقتلاع جذورها الغائرة ، هو التأثير النفسي ، والتغيير الفكري ، والإقناع الذاتي ، والإلزام العقلي بالحجة البينة ، والدليل المستقيم ، والكلمة الصادقة ، التي لايملك منصف معها إلا أن يقول ماعلمنا الله إياه : ﴿ **قلْ فلله الحُجّة البَالِغَة** ﴾ الأنعام : ١٤٩ .

وقد قرر النبي ﷺ هذه الحقيقة ، والتي تؤكد بدورها الأهمية البالغة للعمل الفكري فيقول ﷺ :

« **مامِن الأنبياء مِن نبّي إلا وقد أعطِيَ من الآيات مامِثْله آمن**

عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

وقد اشتمل هذا الوحي العظيم على أوفى تفصيل لجوانب العمل الفكري بشِقّيه : الهجومي ، والدفاعي ، تعليماً للمؤمنين حتى يواصلوا الدعوة إلى الله تعالى على هدى وبصيرة ، ورداً على الكافرين والمنافقين وأضرابهم من أهل الكتاب ، وخاصة اليهود الذين احترفوا الجدل العقيم ، ومردوا على الشبهات والأباطيل .

تنديد القرآن بالغزو الضال :

وقد دمغ القرآن الكريم قادة هذا اللون من الحرب بأسماء وصفات غاية في النكارة مثل : الشياطين ، والسفهاء ، والمعوقين ، والمرجفين ، وأكابر المجرمين ، وأئمة الكفر ، والذين في قلوبهم مرض .. الخ .

كذلك سمى هذا اللون ذاته بصفات أساليبه الخسيسة ، ونتائجه الخبيثة مثل : زخرف القول : والغرور ، والخبال ، والفتنة .. الخ .

ومن ذلك قوله تعالى : **﴿ سيقول السفهاء مِن الناس ما وَلَّاهم عن قِبْلتهم التي كانوا عليها ﴾** البقرة: ١٤٢ .

﴿ وكذلك جعلنا لكلِّ نبي عدواً شياطين الإنس والجن يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخرف القول غُروراً ﴾ الأنعام : ١١٢ .

---

(١) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة .

﴿ لو خرَجُوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبَالاً ولَأوْضعوا خِلَالكم يَبْغونكم الفتنةَ وفيكم سمّاعون لهم والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغَوُا الفتنةَ مِن قَبْل وقلَّبوا لك الأمور حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله وهم كارهون ﴾ التوبة : ٤٧ ، ٤٨ .

والآيتان الكريمتان نزلتا مع معظم سورة التوبة بصدد الحرب الفكرية التي تولى كبرها المنافقون في غزوة تبوك وقبلها ، من التخذيل ، والإرجاف والإشاعات الكاذبة ، والتسخط على كل ما لا يرضي أهواءهم ، والعمل على تفريق المؤمنين ، وتسريب الشبهات إلى الصفوف المؤمنة من داخلها .. الخ .

وقد بين القرآن الكريم أن نتائج وغايات هذا اللون من الحرب هي أخبث وأنكد من آثار السيف والقتل ، قال تعالى : **﴿ والفتنةُ أكبر من القتل ﴾** البقرة : ٢١٧ .

والعبارة الكريمة جاءت في سياق ما نزل من الآيات رداً على قريش ومن والاها ، ممن شنّعوا على المسلمين لأنهم قاتلوا في الشهر الحرام ، مع أن حرمته محل اتفاق واحترام من الجميع .

وقد نزل القرآن الكريم ليقرّع هؤلاء النائحين المتباكين على حرمة الشهر ، وهم ينتهكون كل حرمة ، ويعبثون بكل القيم ، فقارن بين خطأ وقع من بعض المسلمين عرضا ــ لا غرضا ــ وبين خطايا المشركين الصادين عن سبيل الله ، الملحدين في حَرَمه بنصب الأوثان ، ومطاردة أهل الإيمان ، ثم يعقب على ذلك بقوله : **﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾** .

والفتنة قد يراد بها الشرك والكفر ، وقد يراد بها كل الأساليب المؤدية إلى ذلك من تعذيب المؤمنين في أبدانهم ، أو الحجر على حرياتهم وأرزاقهم ، أو تشريدهم في البلاد بعيداً عن الأهل والوطن ، أو مطاردتهم في كل واد حتى لايهنأ لهم عيش أو يستقر بهم مقام ، أو ضربهم بالشبهات وألوان التشكيك حتى يتزلزلوا معنوياً كما زُلزلوا مادياً ، وكل هذا وأمثاله قد يكون أصعب وأشق على النفس من القتل الذي قد يستريح به المرء من العناء ، ومعاناة القتل البطيء ، وهو حيٌّ يرى ويسمع ، ولا يأمن على نفسه الرِّدّة ــ تحت وطأة المحنة ــ التي هي غاية الغايات لوسائل الفتنة المذكورة !

ولهذا عقّب الله تعالى على هذا بقاعدة تمثل قانوناً من قوانين الصراع بين الإسلام والجاهلية على مر العصور فقال تعالى : ﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إنِ استطاعوا ﴾ . والقتال المذكور هنا عام يراد به ماوقع فعلاً من الأساليب السابقة ، وما هو محقق الوقوع في الغد القريب من الحرب المسلحة ، التي شنها المشركون على المسلمين بعد نزول الآيات ، ثم مايشابه ذلك ويشاكله إلى يوم القيامة .

* * *

على أنه في الجانب الآخر كان النبي ﷺ وأصحابه يقارعون المشركين بكل فنون الحرب الفكرية المتاحة لهم ، وكان عمادها الأكبر آيات القرآن الكريم ، ومحاوراته مع المشركين والمجادلين بما لها

من أسلوب فذ ، بذ الشعر والنثر وسائر مايعهده العرب من فنون القول ، من حيث المبنى والمعنى جميعا ، لذلك كان ألد أعدائه لايطيقون طويلاً كتمان إعجابهم به ، وإن اختلفت مذاهبهم في واقع الحياة بين : ماض على عناده ، أو متجاوب مع إعجابه ، وملق قياده لهذا الكتاب المعجز ، ولهذا كان زعماء المشركين أنفسهم لايفلتون من دائرة إشعاعه وتأثيره ، فكانوا — كما ورد في السيرة — « يتسمعون إليه خفية » والنبي ﷺ قائم يصلي به ، ثم تواصوا ألا يفعلوا خشية على أنفسهم ، وقومهم من تأثير هذا الكتاب الغلاب .

ولهذا أيضاً حجرت قريش على أبي بكر رضي الله عنه أن يصلي في فناء داره ، لأنه كان رجلاً رقيقاً بكاّء إذا قرأ القرآن ، فيتقصف عليه نساء المشركين وأولادهم يتسمعون .

ولقد كان من مهمة البلاغ على النبي ﷺ أن يسمع الناس جميعاً ماأنزل عليه ، لذلك دأب ﷺ على غزو المشركين بالقرآن ، يغشاهم به في منازلهم ، ومضاربهم ، وأسواقهم ومجامعهم ، وحجّهم .. الخ .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ الفرقان : ٥٢ .

ثم لما هاجر ﷺ ، ووجد الأعوان والأنصار توسع في استخدام أساليب العمل الفكري ، فاستعمل سلاح الفكر العربي على أوسع نطاق ، كالشعر والخطابة ، مع طبعهما بالنمط الإسلامي ، وقد كان ﷺ يسر غاية السرور بمن يسلم من الشعراء ، كالنابغة الجعدي ،

وكعب بن زهير ، وكان يضيق صدره ـــ على حلمه ـــ بألسنة الشعراء القادحين في الإسلام من مشركين ويهود ، إدراكاً منه ﷺ في الحالين بخطورة هذا اللون الفكري في التأثير على الناس ، وجذبهم للإسلام ، أو دفعهم عنه .

وقد ثبت أنه ﷺ قد اختار خطيباً من الأنصار هو ثابت ابن قيس ؛ واختار شاعراً هو حسان بن ثابت ، وكان ﷺ يحتفي به كثيراً ، ويحثه على الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وينصب له منبراً في المسجد ، ويقول له مامعناه : أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس[1] ، وقد أحاله إلى أبي بكر رضي الله عنه ليستفيد بخبرته في أنساب العرب وقريش[2] .

ولذلك وفق حسان رضي الله عنه في هذا الباب غاية التوفيق ، وكان شعره كما جاء في الأثر : أشد وقعاً على الكفار من السهام في غبش الظلام ، وكانت القصيدة منه تقوم أحياناً مقام الكتيبة ، وقد توسع في هذا الأمر حتى إن شعره ليعد سجلاً نابضاً لأحداث صدر الإسلام ، بحيث لانكاد نجد واقعة إلا وله فيها الأبيات أو القصائد التي تسير بها الركبان ، دفاعاً عن الإسلام ونبيه وأتباعه ، وتنديداً بالجاهلية وأربابها وأعرافها ، ورداً على المناوئين للإسلام بألسنتهم أو أسلحتهم ، وتحريضاً على الغادرين .. الخ .

وفي كتب الحديث والسيرة نجد من ذلك فيضاً زاخراً ، ونجد

(١) انظر البخارى جـ١ ص١١٦ (كتاب الصلاة ، باب الشعر فى المسجد) .
(٢) راجع ترجمة حسان رضي الله عنه في كتاب « أسد الغابة في معرفة الصحابة » .

عبارات حسان اللاذعة القارعة التي كانت تهز أعداء الإسلام هزاً أليماً ، كشعره في « قريش» قبل الفتح ، وشعره في « هذيل » لما غدرت بأصحاب الرجيع الذين بعثهم رسول الله ﷺ دعاة ومعلمين ، وقد أكثر حسان في ذلك وأوجع[1] .

وقد أجاد بعض المعاصرين في تصوير آثار هذا العمل الفكري الذي قام به حسان رضي الله عنه ، والذي لم يقل خطراً ولا أثراً عن الأعمال الحربية يقول :

أرأيت منبراً النبي يقيمه فيقوم حسان يرجّ المسجدا
ويذود عن شرف النبي ودينه ويبين للإسلام نهجاً أمجداً
فترى الجزيرة رُوّعت أوْ وَادَعت حتى كأنَّ على الأعنّة خالدا

والحديث في هذا يطول ، وإنما غرضنا هنا الإشارة والتنبيه ، وتاريخ العالم كله حافل بالأمثلة والشواهد على خطورة الغزو الفكري ، الذي يبرز أحياناً فيكون أقوى عامل في حياة الأمم ، وأحداث التاريخ ، أو يكون على الأقل نذيراً بين يدي عظائم الأمور ، كما قال نصر بن سيار والي (مرو) حين رأى نذر الثورة في خراسان على دولة بني أمية :

أرى بين الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام ؟!

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٩ وما بعدها .

ثانياً

غزو قديم

ومع الأسف انطبق هذا القول على أمتنا الكبيرة ، فكما نامت أمية من قبل ، نامت هذه الأمة العظيمة ، عبر أجيال طويلة وبطيئة ، ودب إليها دبيب الأمم ، وتسرب إليها وهن كثير ، صرفها عن مصدر قوتها وعظمتها ، وعن سرٍّ تفوقها وسعادتها .

وكان في مقدمة الأسباب التي أوهت هذه الأُمَّةَ تسرب الثقافات والأفكار الغريبة إليها ، وشيوعها في جوانبها ، رغم مجافاتها الصريحة أحياناً لمعايير الإسلام وروحه ، ورغم التحذيرات القرآنية والنبوية الصارمة ، والتي من أجمعها قوله ﷺ لما رأى في يد عمر رضي الله عنه صحيفة نقلها عن بعض أهل الكتاب : « لقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تتهوّكوا ، ولا يغرنكم المتهوِّكون »[1] .

الإسرائيليات والفلسفات :

والعجيب أن هذه الأمة العظيمة تهوكت في مجاهل

(١) الحديث في قصة طويلة رواه أحمد وغيره ، والتهوك الوقوع في الأمر بلا روية ، وقيل معناه التحير .

(الإسرائيليات) التي غصت بها فنون الثقافة حتى في تفسير القرآن الكريم .

ثم غرها المتهوكون حين ترجموا (الفلسفة الإغريقية) وغيرها وسربوها إلى لباب العقيدة نفسها ، واتخذوها وسيلة (راقية) — في زعمهم — للفكر ، ومناقشة مسائل التوحيد والإلهيات ، رغم أنها فلسفات وثنية في جملتها ، وتجافي مقررات الوحي عن حقائق الغيب !!

وبهذا البلاء الطافح مرج على الأمة أمر دينها ، وابتعد الكثير منها عن هدى الكتاب ، وسمت النبوة ، والتبس السبيل على الراعي والرعية .

قال ابن درباس : وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون ، وهذا خطأ منهم بل هو بهم أليق ، وبمذاهبهم أخلق .. لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل ، وإلى متابعة الرسول ، وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل ، فازدادوا في التضليل ، ألا ترى أن الله أثنى على يوسف حيث قال : ﴿ **إني تَرَكتُ مِلّة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ۝ واتّبعتُ مِلّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ماكان لنا أن نشرك بالله من شيء** ...﴾الآية ، فلما كان آباؤه عليهم السلام أنبياء متبعين للوحي وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله ، كان اتّباعه آباءه من صفات المدح ، ولم يجئ فيما جاءوا به ذكر الأعراض ، وتعلقها بالجواهر ، وانقلابها فيها ، فدل على أن لاهدى فيها ، ولا رشد في واضعيها .

وقال ابن الحصار : إنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل ، وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم ، وحدوثه ، واختلافهم في الجوهر وثبوته ، والعَرَض وماهيته ، فسارع المبتدعون ومن في قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السنة ، وإدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة ، فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة ، وصار للمبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان حتى قال الأمير بخَلْق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

فانتدب رجال من أهل السنة كالشيخ أبي الحسن الأشعري ، وأبي عبد الله بن كلاب ، وابن مجاهد ، والمحاسبي ، وأضرابهم ، فخاضوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم .. »[1] .

انحراف علم الكلام :

ولقد كان من المقبول أن يستمر هذا العلم على هيئته التي نشأ عليها ، يدافع عن العقيدة الإسلامية بأساليب الشبهات المحدثة ، شريطة أن يلزم حدوده الدفاعية فقط ، وبذلك يكون علماً نافعاً يستطيع أن يجدد نفسه كلما استحدث أهل البدع والإلحاد جديداً من الأقاويل والأفكار .

---

(١) تفسير الإمام القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » عند الكلام على الآية رقم ١٧٠ من سورة البقرة ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا﴾ .

ولكن المؤسف أن هذا العلم تحول من وسيلة دفاع ، إلى أصل تقرر العقائد من خلاله ، وتلتمس لها الأدلة من جدلياته ونظرياته ، ومن ثم أخذ سمة الثبات الفكري ، وتوطد سلطانه ، وأصبح يتلقى بالاحترام والتسليم شأن القوانين ، والأصول المحكمة ، التي لايتطرق إليها النقد ، فضلاً عن الشك ، والنبذ .

ولاريب عندي أن هذا كان إحدى الكبر ، والجنايات الفاحشة على مجتمعات المسلمين ، عامتهم وخاصتهم ، ذلك لأن علماً جدلياً فلسفياً لايمكن بحال ماأن ينشيء عقيدة ، أو يغرس إيماناً ، أو يحرك وجداناً ، وإنما حسبه (إن أمكنه) أن يكون وسيلة دفاع ـــ بعد النص المنقول عن الوحي ـــ ضد من يثير الشبهات .

● فمرتبته إذن تالية ، لاتأتي إلا بعد أن تتقرر العقيدة على منهاج الوحي ، وبأدلته الخاصة ، وبوسائله وأساليبه المتفردة .

● ومكانه إذن خاص ، لاينبغي أن يجاوز حلقات الدرس ، والتخصص لمن يعدون لهذا الأمر ، ليقوموا بواجب كفائي عن أمتهم .

● ووظيفته إذن دفاعية محضة ، متجددة مع الأنماط الفكرية التي يثيرها الملاحدة في كل جيل ، ملونة بلون عصرها وبيئتها .

أما أن يقدم ، ويتخذ أصلاً ثابتاً ، ومدخلاً عاماً فهذا ماي‌أباه الإسلام ، ويرفضه القرآن باستدلاله المعجز[1] .

---

(١) راجع تقرير هذا المعنى تفصيلاً في رسالة : « نظرات في الاستدلال القرآني » ص ١٨ ، ٢٨ .

ومن العجيب أن كثيراً من مراكز التعليم الديني لاتزال تدور في متاهات هذا الخلل الفكري الذي انتهى زمانه ، فهي لاتدرسه دراسة تاريخية مجردة ، إنما دراسة تقريرية ، لتثبت به العقائد ، والأصول الدينية العليا ، بينما اندثرت الفرق التي صنعت جدلياته ، أو قامت حولها ، بل نقض الفكر المعاصر نفسه كثيراً من مصطلحاتها وأقوالها ، وجاء بجديد من القول والنظر ، طعناً في الدين كله ــ والإسلام منه بوجه خاص ــ مما يستوجب الدراسة والتمحيص والتفنيد ، لأنه يشكل واقعاً حياً متحركاً ، فاحش الخطر والأثر ، وسنعرض لبعض ذلك في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

العلم غير الثقافة :

على أنه ينبغي التنبيه إلى الفارق الخطير بين العلوم والثقافات فالعلم الذي يأتي نتيجة التجارب الصادقة ، والنظر الصحيح هو نتاج أممي يتأثر فيه اللاحق بالسابق ، لينقله إلى غيره بدوره .

والثقافات الفكرية النظرية هي نتاج خاص بأمتها ، وقد تكون ضرباً من الأساطير والخرافات ، أو تكون في أحسن صورها تعبيراً عن خصائص أمتها وظروفها ، لاتصلح لغيرها ، بل ربما كانت أفسد الأشياء لغير قومها وبيئتها .

وقد جمع الإسلام ــ بفضل وجهته العالمية ــ عباقرة الأمم في صعيد واحد ، فتضافروا على إخراج حضارة زاهرة ، واستفادوا من علوم السابقين بقدر ماأفادوا الدنيا بعد ذلك .

دورة الجمود الحضاري :

ولكن المسلمين دخلوا في مرحلة « الجمود الحضاري » الذي ظهر فيهم بوضوح في القرن العاشر الهجري وما تلاه نتيجة عوامل كثيرة مثل : الاستبداد السياسي ، والمظالم الاجتماعية ، وإهمال السَّيْر والنظر وعلوم الحياة ، مما عطل فيهم روح الابتكار ، وأفقدهم نزعة الحركة والتجديد ، وأقعدهم عن الاجتهاد والتفتح ، وجعلهم وقوفاً في أماكنهم يجترُّون آثار حضارتهم القديمة ، ويدورون حول إرثهم العظيم ، ينفقون منه ، ولا ينمّونه مع حاجات الحياة المتجددة ، حتى وصل الأمر إلى درجة احتقار دراسة التواريخ ، ومعرفة البلدان والأقاليم ، وعُدّ ذلك بدعة في الدين ، أو مضيعة للوقت في عبث عقيم !

خمول الفكر والفقه :

ومن الناحية العلمية أدى هذا إلى ركود الفكر ، وخمول جذوة النظر ، والبحث ، والاجتهاد ، فالتزم علماء الأمة ومفكروها دائرة الحواشي والمتون ، وعكفوا على نصوص السابقين وكتبهم ، ينزلونها أحياناً منازل العصمة والقداسة ، وينفقون الأعمار في حل ألفاظها ، ويبذلون غاية الجهد في الدفاع عنها ، ورد مايرد عليها ، ويرتكبون في ذلك غاية التكلف واللجاج .

ولقد كان من أخطر ضحايا هذا الوضع هو « الفقه الإسلامي » نفسه الذي يقوم في أساسه على سعة الاجتهاد ، وحسن النظر ،

وصحة الموازنة والتجرد من الهوى والتعصب الفكري الذميم ، بل هو في معناه ومبناه يعتمد على فهم الأمور ، والنفاذ إلى لبابها ، وتنزيل الوقائع الحادثة على قواعد الدين الثابتة ، ونصوصه المحكمة .

ولقد كانت أوضاع المجتمع نفسه ـــ بحكم الجمود العام ـــ تدفع النابغين أنفسهم إلى جانب الخمول والركود ، وتتغلب على التوهج الفكري ، الذي كان ينبثق في جنبات هذه الأمة الكبيرة مصلحاً ومجدداً ، فلا يلبث أن تضيع آثاره العظيمة ، أو تخبو ، ويقبع أصحابه عاجزين عن الإصلاح رغم إدراكهم لحقائق الأمور .

وفي مجال الفقه والاجتهاد ـــ على سبيل المثال ـــ نجد هذه المحاورة الغنية عن التعليق ، لدلالتها البالغة :

« سأل أبو زرعة شيخه البلقيني قائلا : ماتقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلته ؟ فسكت البلقيني . فقال أبو زرعة : فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وأن من خرج عن ذلك لم ينله شيء من ذلك ، وحرم ولاية القضاء ، وامتنع الناس عن إفتائه ، ونسبت إليه البدعة !

فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك »[1] .

* * *

(١) يراجع في هذا كتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق ج ١ ص ١٨ .

ثالثاً

طور جديد خبيث

النهضة الأوروبية :

ومن سوء حظ البشرية عامة ، والمسلمين خاصة أنه في هذا الطور من الضعف بدأت عناصر الغلب والقوة تتوثب صاعدة في أوروبا ، بعد نوم طويل ، فأخذت تركض في مدارج العلم والحضارة ، وتلقفت الراية من المسلمين أنفسهم لتبدأ بها دورة من دورات الحضارات الكبرى في التاريخ .

وكان من أهم أسباب هذه اليقظة أمران :

الأول : تلك الروح الدافعة التي بثها الإسلام وحضارته في أرجاء العالم ، فأخذت تسري في أوصاله مجددة حياته وقواه ، وقد تلقتها أوروبا عن المسلمين إبان الحروب الصليبية في الشرق ، وعن طريق حضارة الأندلس العظيمة في الغرب .

الثاني : التمرد على الكنيسة الجاهلة ، ونبذ سلطانها السياسي والديني بكل مايمثله من خطايا وأخطاء ، وحجر على الفكر ، وكبت للعلم ، واضطهاد للعلماء باسم دين الكنيسة الزائف .

الحقد على الإسلام :

ولقد كان من أخطر جنايات هذه الكنيسة دعايتها الكاذبة ضد الإسلام طوال الحروب الصليبية وبعدها ، وتصويرها له بصورة الدين الوثني المتخلف المنحرف ، مما عبأ النفس الأوروبية عامة بعقدة الكراهية العارمة ، والمقت البالغ للإسلام والمسلمين يتوارثونها كأنها من المسلّمات البدهية بلا فهم ولا تمييز ، ولاتزال هذه الروح سارية في أغوار النفس الأوروبية إلى يومنا هذا ، ولعل هذا أحد الأسباب الأساسية التي حالت بين أوروبا والإسلام ، حتى بعد تمردها على الكنيسة ، فارتدت إلى أصولها الوثنية ، وأحيت تراث الرومان واليونان القائم على إلحادية مادية ، فصارت أوروبا بذلك أعجب مركّب حضاري ، أخذ من الإسلام روحه الحضارية ، ومن اليونان والرومان مثله وقيم حياته الجديدة ، التي قامت على أنقاض مجتمع الكنيسة ودينها المهزوم .

ومن العجيب أن هذه الحضارة حين تمت لها الجولة ، أخذت تتعامل مع العالم الإسلامي بروح هي خليط من هذه المتناقضات ، فكانت ملحدة في كل شيء ، إلا مع المسلمين فهي صليبية مسيحية تتحالف فيها الدولة « العلمانية »[1] مع الكنيسة ، ويقوم فيها الرجل بدور الراهب المبشر . والعالم المستشرق ، والجاسوس المحترف في آن

---

(١) نسبة إلى العلم المادي الذي لايؤمن بالغيب الديني ، ويكفر بما وراء المادة : (Secular) فهي= اللادينية ، أو باصطلاح القرآن المعجز : « الجاهلية » لأن العلم الحديث نفسه أسقط كل دعاوي « العلمانية » التاريخية ، وإن كانت لاتزال تطبق في واقع الحياة امتداداً لسطوة الإلحاد في القرنين الماضيين .

واحد أحياناً .

ولما حان لهذا الطور الحضاري المتفوق أن يمتد خارج حدوده المحلية وقع معظم امتداده على العالم الإسلامي المواجه له ، وأخذ شكل الغارة الشاملة ، وكان الغزو في هذه المرة ماكراً عنيداً ، إذ وعى قادته تماماً مكامن القوة والضعف في نفوس المسلمين ، وعرفوا دور الإسلام الخطير في حياة أتباعه ، وكيف هزمهم في كل مرة كان فيها حاضراً شاخصاً ، وكيف تغلبوا على أتباعه كلما رثَّ في نفوسهم ، وضعف تمثلهم له .

ولذلك استهدف هذا الغزو الفاجر كل شيء : الأرض والناس ، والثروات والعقول ، والمعادن والعقائد ، والأخلاق والأذواق ، والعادات والأفكار .. الخ .

ولقد كانت جنايته على قيم هذه الأمة ومثلها أفدح ــ بما لايقاس ــ من جنايته على الأموال والثروات ، رغم جسامة ما انتهبه منها .

ولذلك كان تركيزهم على مهاجمة الإسلام ، والعمل الدائب على التشكيك فيه ، وتنحيته عن مجالات الحياة الأساسية ، وتتبعه حتى في داخل النفس بالطمس والتشويه !

التزوير الفكري المنظم :

وقد برعت هذه الحضارة الغازية في أساليب الغزو الفكري وتأصيل المناهج الضالة ، وعرضها عرضاً مغرياً ، واستخدام كل

تجاربها العلمية وطرائقها الحضارية في بهرجة ذلك وتدعيمه ، حتى لتعد وسائل الأمم والحضارات السابقة فنوناً ساذجة إذا قيست بما استخدمته ــ ولاتزال تستخدمه ــ الجاهلية المعاصرة من فنون المكر والخداع والتضليل ، والتي تقف وراءها أجهزة مدربة عاتية لتأصيلها ، وفلسفتها ، والتخطيط لها ، وإعداد برامجها ومناهجها ، ومتابعتها بالتنفيذ والرصد والتعديل ، والإحصاء والمقارنة والتحليل ، حتى ليصدق عليهم تماماً ماوصف به الشاعر حافظ إبراهيم الاحتلال الانجليزي :

لقد كان فينا الظلم فوضى فَهُذِّبت
حواشيه حتى بات ظلماً منظماً

وهذا الغزو المنظم المدروس يستخدم القصة ، والتمثيلية ، والمسرح « والسينما » ، والإذاعات بأنواعها ، والكتب والمجلات ، والصورة والمقالة ، حتى الطرائف والملح الشائعة لايتأخر في استعمالها لكسب قضاياه ، وتحقيق أهدافه ، والوصول إلى مايسمونه هم أنفسهم بعمليات (غسيل المخ) ، و (زرع ذاكرة) جديدة في رؤوس الأجيال ، لتنشأ على ولاء فكري ونفسي للغرب ومثله وحضارته !

ولقد كانت نتائج هذا الغزو ــ فعلاً ــ ضارية ومروعة ، إذ نجحت في تنشئة الأجيال على حب الغرب ، والتسبيح بحمده ، والفناء العميق في مناهجه وأساليبه « وطريقة عيشه » في الحياة كما يقول المؤرخ الانجليزي (توينبي) !

وما كان لأوروبا أن تصل إلى معشار هذه النتائج ، ولو ظلت ألف سنة تحمل السلاح ، وتقذف بالجيوش ، وتنتصر في الحروب .

وما أصدق الشاعر الهندي المسلم حين عبر عن هذا بما يقطر مرارة وأسى ، فيقول :

« يالبلادة فرعون ! الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريق لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ، وسوء الأحدوثة في التاريخ » !

بل ماأصدق أن نقول : إن ماوصلت إليه هذه الحروب الخبيثة كان أكبر وأشد من القتل ، لأنها فتنت أجيالاً متتابعة من المسلمين فتنة عارمة ، وتركتهم على الردة الصامتة ، البالغة غاية النكر حين دثروها لهم بثوبي زور ، ودلسوها عليهم باسم التقدم والحضارة ، ثم بلغت الغفلة غاية مداها حين قابل المسلمون ذلك بالإقبال ، وقد كان خليقاً أن يستثير فيهم عزائم النزال والقتال ، والتأبي والاستعصام ، وسيتضح ذلك في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .



رابعاً

مراحل هذا الغزو

لقد مر هذا الطور من الغزو الفكري بمرحلتين أساسيتين ، تبعتهما النتيجة الطبيعية لكل غزو متقن الأساليب ، وهي ما عليه أوضاع المسلمين الآن من تجانف عن الإسلام ، وميل إلى شتى الطرائق الضالة على مانعرضه في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

المرحلة الأولى

الغزو الفكري في فترة الانحلال

كانت هذه المرحلة تمهيدية ، قصد بها تجهيز الفريسة ليسهل الانقضاض التام عليها ، والاستيلاء الكلي على مقدراتها .

وكما قلنا كان الغزاة الجدد قد استوعبوا دروس الجولة السابقة ، ووعوا إلى درجة اليقين مكامن القوة في نفوس المسلمين بهذا الدين ، ولذلك جعلوه هدفهم المباشر ، وركزوا عليه الضربات في عنف وضراوة وتسديد لايكاد يخطىء أو يفتر ، مع ما استحدثوه من براعة الأساليب ونعومة المداخل ، بعد أن عز عليهم قهر هذا الدين بالقوة المسلحة طوال قرون .

ولقد وافق هذا السعي الخبيث دخول المسلمين في فترة ضعف وانحلال حضاري عام ، ولذلك استقبلوا بواكير هذه المرحلة وقلوبهم شتى ، وهذا أول الهزيمة ، ثم لم يكونوا جميعا ــ وخاصة قادتهم ــ على وعي وثيق بمصدر قوتهم الحقيقي كوعي أعدائهم لهذه الحقيقة ، وهذا لب الهزيمة لأنه سهل مهمة العدو الغازي في تصويبه المبكر لقلب المفاهيم وتشويه الحقائق ، وإثارة الشبه والشكوك ، وخاصة في

نفوس وقلوب الطلائع المستنيرة ، والمرشحة في غدها لقيادة أمتها في شتى مجالات الحياة .

الغزو الفكري امتداد للحروب الصليبية :

يذكر « ادوين بلس » في كتابه (ملخص تاريخ التبشير) أن « ريمون لول » الأسباني هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها ، فتعلم (لول) اللغة العربية بكل مشقة ، وجال في بلاد الإسلام ، وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة .

ثم ذكر تحريك البارون « دوويتز » ضمائر النصارى عام ١٦٦٤ م إلى تأسيس مدرسة كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي ، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير ..[١] .

وكما قدمنا صحب ذلك بوادر النهضة الأوروبية ، وصراعها الهائل مع الكنيسة ، وانتهى بما هو معلوم من هزيمة الكنيسة ، وقيام الدول الأوروبية على أساس (لاديني) أو مايسمونه : « بالعلمانية » !

ولما تطلعت هذه الدول إلى إعادة الغارة على العالم الإسلامي ،

---

(١) راجع تفصيلاً وافياً عن ذلك في كتاب « الغارة على العالم الإسلامي » ص ٢٧ وما بعدها فصل تاريخ التبشير ، حيث يذكر اشتراك أمم أوروبا كلها في هذا الغزو التبشيري المبكر !

عمدت إلى دراسة موسعة عن الحروب الصليبية ، ومعرفة تجاربها وأخطائها .. الخ .

وكذلك توسعت في دراسة أحوال المسلمين من حيث اللغات واللهجات ، والمذاهب ، والطوائف ، والفرق .. إلخ ، ثم في دراسة الإسلام نفسه من حيث هو دين ، ومصادر ، وتاريخ ، وكان ذلك كله بقصد خدمة أهداف الحملات المرتقبة .

ولم يكن هذا العمل فردياً ، ولا عفوياً في هذا الطور ، وإنما كان يقوم على إعداد صور ، وتخطيط دءوب ، وتدبير حقود يستهدف غاية مزدوجة هي : تدمير الإسلام ، وقهر المسلمين ، وامتصاص ثرواتهم ، وتحويل مسارهم في الحياة !

الكنيسة تحالف الإلحاد :

وكانت تقف وراء هذا النشاط المحموم جهتان هما : **الكنائس الأوروبية** بكافة مذاهبها ، **والدول الطامعة** بكافة قومياتها وأنواعها ، وربما كان هذا الهدف الخطير ، هو الشيء الوحيد الذي تجتمع عليه الدولة والكنيسة بعد هزيمتها وعزلتها ، ولذلك تعاونا وتعاضدا كل لخدمة غرضه الخاص ، أو لخدمة الغرضين جميعاً ، حتى كان كثير من القساوسة والمبشرين يعملون مباشرة لخدمة دول الاحتلال ، تحت ثياب الاستشراق والبحث العلمي ونحوه ، وبنفس القدر كانت الدول تدعم حركات التبشير وتمهد لها كل السبل خارج بلادها فقط .

« ومنذ البداية كان هناك تجاوب متبادل ، إن لم يكن هناك تماثل

في القصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلي .. وعاش التحالف بين الجانبين ــ على وهنه ــ خلال القرن التاسع عشر ، وبقي قائماً بصورة من الصور إلى عهد « مرجيلوث » في هذا القرن .. وتعلم الفريقان أن يراجعوا أهدافهم ومناهجهم ولكن ظل هناك على حاله تيار عميق من الفكر السائد ــ ربما غدا الآن كامناً فيما وراء الشعور ــ يذهب إلى أن الإسلام لابد أن يعاد تشكيله في قوالب غربيــــة (Westernization) أو عصريــــة (Modernization) أو إصلاحية (Reformation) وهكذا صال المبشرون ، وجال المستشرقون ، وكتب الفريقان ، أو واصلوا الكتابة بدرجات متفاوتة من الدهاء وبعد النظر في تناول الموضوع »[1] .

ولقد كانت خطة الدول ، والكنائس تدور حول محور واحد هو ضرب الإسلام ، وتنحيته عن الحياة ، وكان هذا هو العامل الرئيسي الكامن وراء كل التصرفات حيال العالم الإسلامي عامة ، وكل إقليم يراد غزوه والاستيلاء عليه بوجه خاص ، وقد أعلنوا هذه الحقيقة مراراً ، تارة بالقول الفج ، وتارة بالقول الملتوي الخبيث ، ومن ذلك أن « جلادستون »[2] وقف يخطب فقال وهو يشير إلى القرآن

(١) راجع الدراسة القيمة التي كتبها أ . ل . طيباوي وترجمها الأستاذ فتحي عثمان وهي بعنوان : « المستشرقون الناطقون بالإنجليزية . ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام » وقد نشرها الدكتور محمد البهي ملحقاً لكتابه : « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ص ٥٧٣ وما بعدها .

(٢) جلادستون زعيم حزب الأحرار البريطاني ، ومن مشاهير الخطباء في القرن التاسع عشر ، وكان من ألدّ أعداء الخلافة الإسلامية .

الكريم :

« إننا لن نستطيع الاستقرار في الشرق مادام فيه هذا الكتاب » .

أما « وليم جيفورد بالكراف » فيقول فى وقاحة : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه »[1] .

أهم الوسائل :

وسنعرض لأهم الوسائل التي اتبعوها لتحقيق هذا الهدف الإجرامي :

١ ـ التعليم والثقافة الأجنبية :

ليس من غرضنا هنا استقصاء الوسائل ، وإنما حسبنا أن نشير إلى أخطر ما استخدم منها تمهيداً للغزو العسكري ، الذي أمكنهم في ظله تخريب الشخصية الإسلامية وصياغتها على طراز فاسد أعوج بعد ذلك .

وفي البدء تنبه كثير منهم إلى سذاجة فكرة التبشير بنصرانيتهم بين المسلمين .

لأن عناصر الإسلام وحقائقه الراقية تسمو إلى غير ماحدود عما

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٣ .

لدى المبشرين من عقائد وأخلاق وعادات ، وتطبع المسلم بطابع الإحساس بالتفوق والاعتزاز بدينه .

لذلك اتجه التفكير إلى **إيجاد « حامض » مذيب لهذه المناعة** الإسلامية في نفوس المسلمين ، وقد كان التعليم والثقافة الأوربية هما أخطر المواد التي استخدمت في تحقيق هذا العمل التخريبي الهدام على أوفى الوجوه !

يقول « شاتليه » في تقديمه لأعمال الإرساليات التبشيرية :

« لاشك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية ، وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية في نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلّا ببثّ الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشر اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية ، يتحكك الإسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها »[1] .

وقد أدرك المبشرون أنفسهم ذلك حتى قال بعض غُلاتهم (زويمر) : « المدارس أحسن مايعول عليه المبشرون في التحكك

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٧ ــ ١٨ . وواضح زيف الجزء الأخير من كلام شاتليه لأن تاريخنا شاهد على عكس ذلك ، فقد اقتحم الإسلام معاقل الحضارات القديمة ، واكتسب أهلها بقوة مبادئه ، ودعوته العالمية ، لا بعزلته .

ولايزال الإسلام في العصر الحديث يكتسب ملايين الأنصار بقوته الذاتية ، رغم سقوط المسلمين الحضاري !!

بالمسلمين »[1] .

وفي مقالة جامعة حلل الشيخ علي يوسف رحمه الله هذا السرطان الخبيث الذي تسلل إلى جسد الأمة الإسلامية في نعومة الأفعي وخطورتها ، ومنها :

« ماطمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من الشرق عموماً ، إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس بمرسليها الدينيين ، ومن تخلق بأخلاقهم ، ليعدوا لها طريق الاستعمار علماً منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وتعاليم — دينية كانت أو فنية — وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر ، لايلاقون معارضة أو ممانعة لأن حجتهم نشر العلم والتهذيب ورفع لواء التمدن ، ومن لايرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، وتقوم عليه قائمة حرب التعنيف والتنديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب ، فلا مناص أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين ، الذين هم نصراء الهداية والمعارف والتمدن في ظاهر العين ؛ وسفراء الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة ، وهل يتصور أن قوماً جازوا البحار وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا إليهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟!

كلا .. ولا هي محض التكسب واستجلاب الدرهم والدينار .

إننا نعلم حق العلم أنه مامن مدرسة من هذه المدارس إلا ولها

---

(١) السابق ص ١٠٠ .

جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها تنفق عليها النفقات الطائلة ولا يكون ذلك عبثاً ، ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل دولة غربية ماوضعت يدها على أمة أو قبيلة ـــ تملكاً أو حماية ـــ إلا وجعلت مقدمة ذلك هذه المدارس .

فبان أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي وملّي في آن واحد »[١] .

مثالان صارخان :

ونكتفي هنا بذكر مثالين صارخي الدلالة على صدق هذا وهما بلسان الغزاة أنفسهم :

المثال الأول :

من مؤتمر « أدنبرج » التبشيري الذي عقد عام ١٩١٠ م وحضره ١٢٠٠ من المندوبين وتفرع إلى ثماني لجان ، وخاضت اللجنة الثالثة منها في « الأعمال المدرسية التي يقوم بها المبشرون » واكتفت بهذه الكلمة عن المسلمين فقالت :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجح على تأثير العمل المشترك

(١) منتخبات المؤيد ص ٥٠ (السنة الأولى) وقد نقلنا ذلك عن كتاب : الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ١٤٦ ـــ ١٤٧ .

الذي قامت به دول أوروبا كلها »[1] .

المثال الثاني :

ماصرح به القائد الفرنسي الجنرال « بيير كيللر » عن وسائل التأثير الفرنسي في الشام قبل احتلاله يقول :

« فالتربية الوطنية كانت بكاملها تقريباً في أيدينا ، وفي بداية حرب عام ١٩١٤ م كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا ، وكان بين هؤلاء فتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة ، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس تعلن عام ١٩١٧ م أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلموا لغتها ، وخبروها على مرّ الأجيال ، وتأكدو من إخلاصها وتجردها » !!

ويقول أيضاً : « إن كلية عينطورة في لبنان هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية .

ويقول : « إن مؤسساتنا تعمل دون ملل لتغذية النفوذ الفرنسي مثل : معهد الدراسات العبرية في القدس ، ومعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة ، والمدرسة الإكليريكية الدومينيكانية في

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١١٩ ، وراجع فيه الإحصاءات المذهلة عن عدد المبشرين ، ومدارسهم ، وتلاميذهم ، ونفقاتهم الباهظة .. إلخ ص ١٠٦ وما بعدها ، صفحة ٢٠٥ وما بعدها ..

الموصل .. الخ »[1] .

وما وقع لهذه البلاد وقع مثله لغيرها بصورة أو بأخرى ، وتكالبت فيه على المسلمين أمم أوروبا وخاصة الدول الطامعة في الاستيلاء على غيرها ، كانجلترا وهولندا وألمانيا القيصرية .. الخ .

دور أمريكا في حماية التبشير :

ومن أعجب الأمور أن الولايات المتحدة الأمريكية ــ رغم عزلتها الشهيرة ــ كانت على أوثق الصلات بهذا الغزو ، تسهل طرقه ، وتؤثر في أطرافه بوسائلها المتعددة ، وعلى سبيل المثال بلغ عدد مندوبي أمريكا ٥٠٥ من المندوبين في مؤتمر أدنبرج التبشيري سنة ١٩١٠ (وقد سبق ذكره) ، وكان منهم كبار الشخصيات كالمستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا (السابق على المؤتمر) ولم يتخلف عن الحضور إلا لعذر طارىء .

وهذا العدد الرهيب يفوق عدد مندوبي أعتى دولة استعمارية في ذلك الوقت وهي انجلترا التي اشترك عنها ٥٠٢ من المندوبين[2] .

ومن المدهش حقاً أن الدولة العثمانية كانت أحياناً تحد من نشاط المبشرين الأجانب وأعوانهم ، حين رأت الدور التخريبي الهدام الذي يقومون به سياسياً واجتماعياً وفكرياً ، ولكن :

(١) راجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٦٤ وما بعدها وهو ينقلها عن كتاب « بير » : « القضية العربية في نظر الغرب »

(٢) راجع كتاب : الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٩ .

« كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة » كما يقول المستر « بلس » المبشر البروتستانتي[1] .

جرائم المبشرين تحت ستار التعليم :

« العلم نور وإصلاح » ، ولكن المبشرين جعلوه وسيلة إفساد وتدمير ، وقصدوا به إلى تخريب الشخصية الإسلامية ، وتفريغها من معاني دينها العظيم ، وإغرائها بفوارغ الأمور !

وسيظل الدور الذي قام به الرهبان والراهبات و « الآباء » — تحت أردية الكهنوت — وصمة في جبينهم حيث رضوا بأن يكونوا أدوات في يد « العلمانية الملحدة » ، وضد أجلّ مافي الأرض من تعاليم الوحي الإلهي !

ومن أراد التعرف على الدور الحقيقي لهم فليقرأ كلمات المبشر الضال « زويمر » رئيس مؤتمر المبشرين (الذي عقد في القدس عام ١٩٣٥ م) حين بين لزملائه وتلاميذه مهمتهم « الحقيقية » في أوساط المسلمين ، وأكد لهم نجاحهم فيها تماماً ، وعزاهم بذلك عن إفلاسهم في البرنامج « الظاهري » لتنصير المسلمين :

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٢ ، وراجع أيضاً ص٢٧ منه (فصل تاريخ التبشير) حيث نسب هذا القول لكتاب « بلس » وعنوانه : ملخص تاريخ التبشير . وراجع أيضاً ص ٢٣٤ وما بعدها حيث يوجد تفصيل واسع عن جمعيات التبشير الأمريكية .

خطبة زويمر :

« .. لقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء ، ووفقتم لها أسمى التوفيق . وإن كان يخيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه ..

... مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً،وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لاصلة له بالله .

وبالتالي لاصلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ماقمتم به في خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام ..

لقد قبضنا ــ أيها الإخوان ــ في هذه الحقبة من الدهر (من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا) على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية ..

والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء أنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد !

إنكم أعددتم نشئاً في ديار المسلمين لايعرف الصلة بالله ولايريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار المسيحي لايهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات .

فإذا تعلم **فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز فللشهوات ، ففى سبيل الشهوات يجود بكل شيء .**

إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه ، وباركتكم المسيحية ، ورضى عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم .. » .

٢ ــ محاربة الشريعة الإسلامية :

وفي هذا الجو المظلم تخرجت أجيال من أبناء المسلمين ، أو بالأحرى من متعلميهم ومثقفيهم ، متأثرة بضروب هذا الغزو المنظم ، متطلعة إلى الأفق الغربي تستلهمه الرشد ، وترى فيه النموذج والمثل الأعلى ، وتتشرب ــ في نهم ــ أنماط حياته سلوكاً وفكراً ، بلا فحص ولا بصيرة ولا رأي سديد !!

وكان أخطر ماألقى في روع هذه الطلائع النكدة قياس الإسلام بدين أوروبا وكنيستها ، مع فارق مابين الأمرين شكلاً وموضوعاً ، وتاريخاً وظروفاً ، كذلك ربطوا في أذهانهم التخلف المادي بالإسلام ، وهذا عكس الحقيقة ، ونقيض الواقع على طول الخط .

وقد انعكس هذا كله على تصرف هذه الطلائع في نظرتها لدينها العظيم ، وفي درجة استمساكها به ، وفي استعدادها النفسي والفعلي لقبول الفكر الوافد ، واستبداله بالإسلام في كثير من النواحي ولو كان المجال القانوني التشريعي .

وكانت مؤامرات أعداء الإسلام دائبة في تكميل الدائرة ، وضرب النطاق الحاقد حول الشريعة الإسلامية ، ومحاولة انتقاصها وتنقيصها ، وإبعادها عن مجالات الحياة الأساسية أولاً بأول في واقع حياة المسلمين ، بعد أن كسبوا جولتهم داخل عقول الطلائع المستنيرة المرشحة لقيادة أمتها باطراد ، والتي استعانوا بها في هدم حصون أمتهم من داخلها !!

وليس أدل على ذلك من أن دولة الخلافة نفسها كانت نهباً لغزو فكري شامل ، تمثل في المدارس والمعاهد وإرساليات التبشير الأوروبية ، ثم في حملات الدعاية الكاذبة في صحف أوروبا ودوائرها السياسية والأدبية والاجتماعية ، مما شل إرادة دولة الخلافة وأوقعها في النهاية بين براثن مايراد لها من كيد لئيم، رغم مقاومتها الشديدة من الناحية الإسلامية ، ولكن الغزو الفكري كان قد نجح في تهيئة أنصار له من الداخل قربوا له الجولة من حيث يعلمون أو يجهلون ، وهل كانت الزعامات التي قادت تركيا إلى الإلحاد والفسوق والانحلال ، إلا وليدة هذه الفترة ، وحصاد هذه التربية النّكدة ، كما هو معلوم من التاريخ ؟!

يقول الدكتور محمد محمد حسين حول هذا :

« كانت الحضارة الأوربية والثقافية الغربية تغزو الشرق الإسلامي وتغزو تركيا نفسها في أشكال مختلفة ، معاهد علمية وشركات أجنبية ، وبضائع وملابس وفرش وأثاث ، وقد دأب الأمراء والأثرياء والطبقات العليا من المستوزرين والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب ، وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان ، وإعجاباً بنظامها المحكم الدقيق وببراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها لكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى »[1] .

وبالنسبة للمجال القانوني التشريعي التقى الأمران : الوهن الداخلي ، والتآمر الخارجي ، على الكيد للشريعة الإسلامية ، وتشويه معالمها فكرياً ، وصرف المسلمين عنها واقعياً .

المحاكم والقوانين الجديدة :

وفي البدء كانت دولة الخلافة توصم بالتخلف المادي والرجعية والجمود ، وكانت الامتيازات الأجنبية قد تغلغلت في أحشائها حتى أصبح للدول الأجنبية سيادة قضائية وتشريعية بالنسبة لرعاياها في داخل دولة الخلافة نفسها ، ثم لما وقعت الحرب الطاحنة بين روسيا وتركيا (١٨٥٣ ــ ١٨٥٥ م) والتي انتهت بعقد مؤتمر الصلح في باريس (١٨٥٦) تحت إشراف أعتى دولتين تحاربان الإسلام وأهله

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ ١ ص ٢٥٩ .

وهما : (إنجلترا وفرنسا) استطاعت الدول الكافرة أن تدفع دولة الخلافة إلى منزلق خطير جداً ، يأخذ اسم الإصلاح وشكله بينما ينطوي في داخله على أكبر المفاسد ، وقد أعان على ذلك جنود الغزو الفكري من أبناء الدولة نفسها ورعاياها .

وقد تضمنت القوانين التي أصدرتها الدولة عقب هذا المؤتمر — والتي عرفت باسم « التنظيمات الخيرية » — إنشاء مايسمى : « **بالمحاكم المختلطة** » و « **المحاكم التجارية** » تابعة للدولة نفسها ، وتطبق قوانين أجنبية باسم دولة الخلافة الإسلامية ذات السيطرة الواسعة على المسلمين، وكان **هذا هو حدث الأحداث في بداية انهيار التشريع الإسلامي** — من حيث التطبيق والتنفيذ — وحتى مجلة « الأحكام العدلية » التي أصدرتها الدولة عام ١٨٦٩ ميلادية ، وقننت فيها أحكام المعاملات من مذهب الإمام أبي حنيفة لتقابل مايسمى « بالقانون المدني » في الأنظمة الوضعية — حتى هذه المجلة لم تكن تطبق إلا على رعايا الدولة فقط ، وفي الأحوال التي لايكون فيها أحد طرفي النزاع أجنبياً ، ثم مع ذلك استمرت عرضة للتحيف والانتقاص .

نقض العقوبات الإسلامية :

وعلى سبيل المثال كانت هذه « التنظيمات » الجديدة أعنف لطمة صريحة ومباشرة للحدود والجزاءات الإسلامية تنفذ بأيدي المسنمين أنفسهم ، ويبلغ الجهل ببعضهم أن يعدها إصلاحاً وتقدماً

وكسباً ، وهذا هو ذروة ماتستهدفه الحرب الفكرية ، ودليل على براعة مدبريها من أعداء الله ، ثم هو حصاد طبعي لهذا الغرس النكد الذي غُذى في صبر وأناة بكل أفكار الضلال والإلحاد .

يقول الدكتور محمود مصطفى :

« كان قانون العقوبات الفرنسي الذي صدر سنة ١٨١٠ م حدثاً في تاريخ القانون الجنائي ونموذجاً في عهده ، نقلت عنه دول كثيرة في داخل أوروبا وخارجها ، ورغبت تركيا في كسب سياسي بالتقريب بين نظامها والنظم الأوروبية الحديثة فأصدرت قانون : « الجزاء العثماني » ١٨٥٨ م مستمداً أحكامه من القانون الفرنسي ، وبصدور **هذا القانون انتهى عصر تطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من الأقطار العربية**، حيث طبق عليها بحكم تبعيتها لتركيا وهو ماحصل في سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، وقد ظل قانون « الجزاء العثماني » مطبقا في هذه الأقطار إلى أن أصدرت قوانينها الخاصة في القرن العشرين »[1].

مثال تطبيقي لهذا الغزو وآثاره على الشريعة الإسلامية :

ولنأخذ (مصر) على سبيل المثال في فترة ماقبل الاحتلال ، أو بعبارة أدق في فترة تجهيز الفريسة ، وإعدادها ليسهل الاستيلاء عليها ، والإجهاز على بقية مقوماتها وقيمها .

فقد أدرك الغزاة من أول الأمر خطورة دور مصر ، وثقلها في

(١) أصول قانون العقوبات في الدول العربية ص ٩ ــ ١٠ .

هذه المنطقة ، وقدرتها العارمة على تبديد موجات الغزو المسلح ، كما حدث في معارك التتار والصليبيين من قبل ، ولذلك ركزوا عليها في الجولة الجديدة ، فكانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ م) والحملة الانجليزية (١٨٠٧ م) .

وقد ثبت من هاتين الحملتين أن الشعب المسلم في مصر — رغم تأخره المادي الشديد — لاتزال فيه بقية دينية ، وحمية إسلامية جارفة ، وخاصة إذا هدد في قيمه وأخلاقه التي غرسها فيه الإسلام ، أو أحس بخطر الكفار على دينه وبلاده وإخوانه ، ومن ثم استحال بقاء الحملة الفرنسية ، لأن المسلمين وضعوها في موضعها الصحيح من حيث هي حكم الكفار أعداء الإسلام — رغم ادعاء نابليون — وهذا هو الذى جعل الأزهر يتصدى لقيادة الثورة من الداخل ، وهو عين ماحفز « سليمان الحلبي » طالب العلم الأزهري (الشامي وليس المصري) ودفعه لقتل قائد الحملة الثاني « كليبر » باعتباره عدواً للإسلام والمسلمين .

وبنفس المقياس هزم مسلمو رشيد الحملة الانجليزية ، قبل أن يتمكن حاكمهم الجديد من معونتهم (وهو محمد علي) ، أي أنه في أقل من عشر سنين هزم مسلمو مصر أعتى دولتين في عصرهم .

ومن اليقين أن الغزاة قد أعادوا النظر في خططهم ، وعادوا يتقنون التصويب والتسديد إلى مصدر الخطر ومبعث القوة وهو هذا الدين العظيم .

التركيز على مصر :

وقد ثبت تاريخياً أن هذا الهدف كان من أكبر الأسباب الحاملة لفرنسا على تدعيم محمد علي ، والترحيب ببعثات الطلاب المصريين في بلادها ، وبعث العلماء والأطباء والقادة العسكريين إليه ليكونوا في الحقيقة رسل التَّغْيير ، وحَمَلة الحضارة الفرنسية ، وليبذروا في التربة المصرية بذورها وفكرها ، ليؤدي دوره المرسوم في التطور المبتغي !

وكان في بداية هذا إدخال بعض القوانين التجارية والحربية إلى مصر نقلاً عن قوانين فرنسا ، وكان بعض المبعوثين إلى فرنسا في هذا العهد الجناح الداخلي لعملية التطوير ، والتأثير الفكري الذي أريد لهذه المنطقة كلها من مدخلها الواسع ، أعني (مصر) !!

وقد ظل النفوذ الفكري الفرنسي يتسلل إلى مصر ويستشرى وخاصة في الطبقات العليا من الأمراء وأشباههم ، حتى كان الخديوي إسماعيل الذي ربي في فرنسا ، واستدعي لحكم مصر من هنالك ولما يكمل تعلمه فيها ، وقد عاد هذا الغلام من باريس ، وقد ذابت تماماً كل حرارة للإسلام في صدره ، وصاغته « صالونات » باريس وصداقاته المتعددة لرجالها ونسائها صياغة جديدة ، غريبة تماماً عن الأمة التي ابتليت بحكمه ، فكان مبهوراً بما رأى وسمع . ولم تكن لديه قاعدة أصيلة لماهية أمته ودينه ، وكانت أمنيته التي صرح بها مراراً أن « يجعل مصر قطعة من أوروبا » !!

وكأي مقلد فقد أصالته أخذ من أوروبا الشكل والمظهر دون الجوهر والمخبر ، فأسرف إسرافاً فاحشاً في تشييد القصور ، وإقامة

التماثيل ، والحدائق والمنتزهات ، والمسارح ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي ، فضلاً عن حديقة الحيوان ، والمتحف الفرعوني ... الخ .

ويعجب دارس التاريخ من هذا الحاكم ، الذي أغرق بلاده في الديون وفوائدها الباهظة ، نتيجة هذه المظاهر ، كيف أنفق الملايين على حفل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩ م) حتى اضطر إلى بيع حصة مصر فيها إلى ألد أعدائها ؟! وكيف أنشأ في مصر ــ على مافيها من فقر وجهل ــ « دار الأوبرا » ، واستقدم لها المغنين والمغنيات ، واستأجر أشهر موسيقيي أوروبا ليضعوا لها الألحان ... الخ ؟!!

ومن النظرة الشاملة لهذا كله نستطيع القول أن المدة التي حكمها هذا الشاب السفيه (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩ م) كانت من أخطر المراحل في تدمير الشخصية الإسلامية ، وإذابتها ، وحل عروتها ، وهدم شريعة الإسلام جملة هدماً غير مسبوق في تاريخها ، بل كان هذا الحاكم أول من تجرأ على هدمها بهذا القدر من الاستبدال والتأصيل والتثبيت لشرائع الكفار !

فقد أنشأ أول **مدرسة « للحقوق »** على النمط الفرنسي ، فكانت تدعيماً علمياً وعمليا لوجهته الاستبدالية ، وقد أصبحت فيما بعد مصدراً أساسياً لتخريج أجيال مبتوتة الصلة بشريعة الإسلام ، لصيقة بشرائع الكفار ، ثم طورت لتصبح **« كليات »** واسعة النطاق !

مصرع أمة :

وقد تلاقت رغبة إسماعيل المبهور ، برغبة أخرى أذكى وأنكى

وهي رغبة أعداء الإسلام ، الطامعين في محوه ، واستعباد أمته ، ويذكر محمد طلعت حرب ــ الاقتصادي المصري الشهير ــ واقعة تاريخية لم نجد من يكذبها وهي : « **أن إسماعيل لما أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية ، وعد ملوك أوربا إن أيدوه من أجل تحقيق هدفه ، أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية ، ويفصل السياسة عن الدين ، ويطلق الحرية للنساء بحيث يسرن في أثر المرأة الغربية ، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوروبية** »[1] .

وسواء كان هذا اتفاقاً ، أو استدراجاً ، أو إغراء فلقد كانت النتيجة المروعة هي غرق مصر في الديون ، ثم تدخل الكفار الأجانب في شئونها بحجة حماية أموالهم ، حتى كان في الوزارة المصرية وزيران : إنجليزي وفرنسي ، ومن هذا الباب النكد دخلت رياح **الانقلاب التشريعي** ، وانتهت باحتلال البلاد كلها ، ثم فرض شريعة الكفار عليها على مانوجز بيانه فيما يأتي :

(أ)ــ المحاكم القنصلية :

وقد نشأت على أثر توسع الامتيازات الأجنبية التي صحبت

(١) جاء هذا في كتابه « تربية المرأة والحجاب » الذي نشر عام ١٨٩٩ م رداً على كتاب قاسم أمين : « تحرير المرأة » وكان ذلك في عهد عباس الثاني حفيد إسماعيل مما يجعل لكلام طلعت حرب قيمة أوثق ، على أن كل تصرفات إسماعيل هي ترجمة لهذا الوعد الخسيس ، وقد نقلت هذا النص عن كتاب « قاسم أمين » للدكتور ماهر حسن فهمي ص ١٤٠ (ط : وزارة التعليم المصرية) أو صفحة ٦٥ من (ط : سلسلة أعلام العرب) .

تدفق الأجانب على مصر ، وقد أصبح لهذه المحاكم : « سلطة الحكم فيما يرتكب رعاياها من جرائم على المواطنين ، وكذلك سلطة الفصل في القضايا التي يرفعها رعاياها على الأهالي بل وعلى الحكومة المصرية نفسها » ..

« وكان كل قضاء قنصلي يحكم طبقاً لقانون بلاده ، فكان يوجد بمصر سبع عشرة محكمة قنصلية تمثل سبع عشرة دولة كانت تتمتع بالامتيازات الأجنبية في مصر ، وبهذا تعرضت المعاملات في البلاد لقوانين مختلفة ومتباينة .. بل أكثر من ذلك كان لايجوز الاستئناف في هذه الأحكام إلا أمام محاكم الاستئناف في البلاد الأجنبية التابع لها القاضي القنصلي .. »[1] .

(ب) ـــ المحاكم المختلطة :

وقد نشأت في غمرة التدخل الأجنبي وفوضى الامتيازات وفي ظل الخراب الاقتصادي الذي جلبته القروض الربوية ، والإنفاق السفيه على مظاهر حضارية عقيمة النفع للأمة ، وخاصة في مرحلة حياتها وقتئذ !

وكانت نشأة هذه المحاكم واحدة من أبلغ الأدلة على خطورة الغزو الفكري ، وعلى سوء عاقبة تربية القادة على معايير الكفار وثقافاتهم وأذواقهم ، وأيضاً على خطورة عزلهم عن قيم الإسلام

(١) « تاريخ العرب الحديث والمعاصر » للدكتور أحمد عزت عبد الكريم وزملائه ص ٩٣ ـــ ٩٤ ، مع بعض التصرف .

ومثله العليا وشرائعه الهادية !

فلقد أراد إسماعيل أن يوحد القضاء فاستبدل الوباء بالداء وحول المحاكم « القنصلية » إلى محاكم تابعة للدولة المصرية ذاتها ، وسميت « بالمختلطة » وكان أغلب قضاتها من الأجانب ، وكانت الشريعة التي يحكمون بها باسم مصر — هذه المرة — هي شرائع فرنسية محضة ، حررت على عجل نقلاً عن القانون الفرنسي ، وعلى نسق مجموعاته بل وبواسطة المحامي الفرنسي : (Monori)[1].

وقد أشرف على هذا التحول الانقلابي الخطير كافر متمصر هو الأرمني « نوبار » ، الذي لاتزال تماثيله قائمة في مدن مصر ، وتسمى باسمه أكبر شوارع فيها ، وهذا غاية الغفلة والجهل ، وتسرب سموم الغزو الفكري إلى نخاع الذين يقودون هذه الأمة المغلوبة على أمرها ، والتي لبست عليها الحقائق وضيعت فيها معايير الاعتزاز حتى بالمقاييس الوطنية ، إذا عز عليهم الاعتزاز بمقاييس الإسلام السامية !

ولنقرأ — تاريخياً — قصة هذه المحاكم :

« عندما فكر إسماعيل في إصلاح فساد المحاكم القنصلية نهج منهجاً خاطئاً إذ بدلا من أن يلغي هذه المحاكم ، ويجعل الجميع سواء أمام القانون ، تحمس لتنفيذ المشروع الذي وضعه وزيره « نوبار » ، وهو يقضي بنقل سلطة المحاكم القنصلية ، المتعددة ، إلى « محاكم مختلطة » أغلب قضاتها من الأوربيين ، ولم تكن هذه المحاكم سوى

---

(١) انظر في هذا كتب مداخل القانون مثل كتاب : « نظرية القانون » للدكتور عبد الفتاح عبد الباقي فقرة ١١٠ .

امتياز جديد ، مهّد لتغلغل نفوذ الأجانب في سلطة « القضاء والتشريع » وفي كيان البلاد المالي والاقتصادي .

وقد جاء نظام المحاكم المختلطة (١٨٧٥ م) قلباً للأوضاع إذ بدلاً من خضوع الأجانب للقضاء القومي ولقوانين الدولة ، أصبح المصريون خاضعين للقضاء المختلط ، وغدوا بذلك غرباء في بلادهم ، وأظهرت هذه المحاكم من التحيز للأجانب في دعاواهم على الحكومة ما جعلها مضرب الأمثال في امتهان العدالة !

ولم يقتصر خطر المحاكم المختلطة على الناحية القضائية بل امتد إلى « السلطة التشريعية » كذلك ، لأن إنشاء هذا النظام أكسب الدول المتمتعة بالامتيازات الأجنبية حقاً جديداً مؤداه : أن التشريع الذي يسري على الأجانب لايكون نافذاً إلا إذا صدقت عليه الجمعية العمومية لقضاة المحاكم المختلطة ، بذلك شاركت المحاكم المختلطة في سلطة التشريع بالنسبة للأجانب ... »[1] .

(ج) ــ المحاكم الأهلية :

وهذه المحاكم هي النسخة العربية من المحاكم المختلطة حذو النعل بالنعل ، إذ لم تكد أقدام الانجليز تدنس مصر بالاحتلال (سبتمبر ١٨٨٢ م) حتى شرعوا في إتمام الخطة الإجرامية لنقل هذه الأمة عن شريعة الإسلام ، ومن ثم أنشأوا بجوار « المحاكم المختلطة » ماأسموه

(١) راجع كتاب تاريخ العرب الحديث « السابق » ، ولم تلغ المحاكم المختلطة في مصر إلا سنة ١٩٤٩ م .

« بالمحاكم الأهلية » ليتحاكم إليها أهل البلاد أنفسهم ، فيما يشجر بينهم ، وقد صدرت قوانينها ابتداء من نوفمبر ١٨٨٣ م مأخوذة بنصها تقريباً عن القوانين الفرنسية التي وضعت للمحاكم المختلطة .

أي أنه في الشهور الأولى للاحتلال شرع الغزاة الكفار على عجل في العمل الجاد لطرد شريعة الإسلام من مجالات التعامل الحيوي في المجتمع المسلم ، وإحلال القوانين الغربية مكانها !!

وسيأتي لهذا مزيد من التفصيل بإذن الله في حديثنا عن مرحلة الاحتلال[١] .



(١) المحاكم الأهلية من نتائج فترة الاحتلال ، ولكننا ذكرنا عنها هذه النبذة هنا إتماماً لوحدة الموضوع ، وباعتبارها امتداداً مباشراً لما حدث قبل الاحتلال ، وسنعود للحديث عنها في فترة الاحتلال إن شاء الله تعالى .

المرحلة الثانية

الغزو الفكري في فترة الاحتلال

نعني أولاً بفترة (الاحتلال) : تلك الأحقاب النكدة التي كان للكفار الأجانب فيها وجود عسكري ثابت على أرض الأمم المسلمة ، وما يتبعه من وجود جالياتهم ورعاياهم ، وتفردهم بالنفوذ والسلطان !!

فوارق بين الغارتين :

وكانت هذه الجولة الجديدة غارة ساحقة على العالم الإسلامي أخبث وأعنف من موجة الحروب الصليبية ، التي انحسرت نهائياً في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد جاءت هذه الغزوات القديمة والعالم الإسلامي لما تزل فيه بقية صالحة من قيم الإسلام ومثله العليا ، ثم كانوا هم في موضع الضعف حضارياً فتعلموا منا ونقلوا عنا ، وأيضاً فقد انحصروا في رقعة محدودة من قلب العالم الإسلامي وإستهدفوا الأرض وطردوا السكان ، وأقاموا مجتمعاً نافراً مغلقاً ، علاقاته بمن حوله علاقة عداء ، لامكان فيها لغير صوت الحروب والسلاح .

لهذا كله لم يكن للغزو الصليبي الأول تأثير حضاري او فكري ، وإنما كان أشبه شيء بمرض عارض على جسد قوي ، وأقرب الأمور إلى سنن الحياة ، أن يستثير المرض كوامن المناعة فيه ، وأن يستحثه إلى أسباب الوقاية والعلاج ليطرد العلة الوافدة ، وكذلك كان .

أما الغارة الجديدة والتي بدأت عملياً بغارات الأسطول البرتغالي على سواحل العالم الإسلامي ، ثم استيلاء هولاندا على جزر الهند الشرقية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، والتي بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — بعد سقوط الخلافة — إذ استولى الكفار على العالم الإسلامي كله إلا مناطق قليلة لم تنج من الخضوع لنفوذهم ودسائسهم[1].

فلم تكن أوروبا في هذه المرة مجرد قوة هوجاء متهوسة كأسلافها ، وإنما جاءت ومعها حضارة جديدة براقة ومؤثرة ، وانساحت على امتداد الرقعة الإسلامية كلها تقريباً ، ومهدت طريقها بغزو فكري واجتماعي غلاب ، وأخذت مراكز الحكم والتوجيه ، واستجلبت معها جاليات من كل لون ، ومكنت لهم في الأرض فانسابوا في علاقات إنسانية واجتماعية مع شعوب هذه الأمة في التعليم والثقافة ، والصداقة والتجارة ، والفنون والمسارح .. الخ .

وقد وافق ذلك كله جسداً منهكاً ضعفت مناعته فزادته العلـ

(١) راجع في وصف وتفصيل هذه الحالة المحزنة ، رسالة « بين الأمس واليوم » للأستاذ الإمام حسن البنا ، رحمه الله ، وخاصة الفقرة (د — هجوم جديد) .

الوافدة ضعفاً وإنهاكاً !

وهذا هو في جملته الفارق الخطير بين الغارتين ، وقد نبه النبي ﷺ إلى جانبه النفسي المعنوي ، محذراً ومنذراً في حديث هو من أعلام نبوته ﷺ فيقول :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال ﷺ : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهْن ، فقال قائل : وما الوهن ؟ قال ﷺ : حب الدنيا وكراهية الموت »[1] .

انقلاب خطير :

وهذا الوهن الخطير كان من أكبر الأسباب التي مكنت الكفار الغزاة من بلاد الإسلام بعد انحلال الشخصية الإسلامية نوعاً ما ، ثم استطاعوا بعد ذلك تبديل وجهتها ومسارها ، وتنفيذ مخططهم الرهيب في اقتلاع هذا الدين من نفوس أتباعه ، أو تفريغهم من مضمونه الصحيح !.

« ذلك أن الغزاةِ الكفار لم يضيعوا وقتهم عبثاً بعد تمكنهم من

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ثوبان ، وهو عند أبي داود رحمه الله عن ثوبان أيضاً في السنن « كتاب الملاحم ــ الباب الخامس : تداعى الأمم على الإسلام » جـ ٢ ص ٤٤٦ وانظر فقه أبي داود رحمه الله في تخصيص التداعي « بالإسلام » لأنه محور العداء الحقيقي بيننا وبين الكفار .

مراكز الحكم والتوجيه في بلاد المسلمين ، بل شرعوا على الفور في تنفيذ خطتهم التي كانت ترمي إلى أمرين أساسيين :

أحدهما : إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ليسهل عليهم الاتصال به والتفاهم معه .

والثاني : (وهو أخطر الأمرين جميعاً) أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ومن الثقافة الإسلامية ومن الحمية الدينية »[1] .

وكان لابد لبلوغ هذا الهدف من إحداث انقلاب جذري في حياة المسلمين يصادم المنهاج الإسلامي في جملته الأساسية ، وما كان لهذا الانقلاب أن يتم أو يبلغ مداه إلا في حراسة الجيوش الكافرة ، وعلى يد أئمة الكفر المباشرة !.

عناصر الانقلاب :

ونستطيع إيجاز العناصر المشتركة وراء هذا الانقلاب في ثلاثة :

أولهـــا : الانحلال الأخلاقي .

وثانيها : الغزو الفكري بشعبه المتعددة .

وثالثها : التربية الجديدة للطبقة البديلة !.

وهذه العناصر قدر مشترك بين ألوان « الاستخراب » الانجليزي والفرنسي والهولندي .. الخ كما هي بلاء مشترك لافرق فيه بين المسلم

(١) راجع الرسالة الصغيرة نشرتها مجلة الأزهر ملحقاً لها بعنوان : «التربية التى يحتاج إليها العالم الإسلامي » للدكتور إبراهيم اللبان .

في أقصى المغرب ، وأخيه في آخر المشرق،وهي أيضاً عوامل متشابكة، متداخلة، ساند بعضها بعضاً حتى وصلت بالمسلمين إلى ماهم عليه الآن من أوضاع غير مسبوقة في تاريخهم ، ولا معقولة في التصور ، فضلاً عن أن تكون واقعاً ثقيلاً يشكل مسيرة حياتهم كلها !!

وسنتحدث عن كل منها بشيء من الإيجاز :



عناصر الانقلاب فى حياة المسلمين

الأول : الانحلال الخلقي

كان المجتمع الإسلامي ــ رغم كل مايموج به من مخالفات لدينه ــ يتميز بطابع خاص في أخلاقه وعاداته الأساسية التي غرسها القرآن ، وأسسها الإسلام وجعلها من لب العبادة والتقوى .

وقد جهد الاحتلال الكافر بشتى الطرق ، حتى تمكن من تحطيم مظلة الأعراف الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية ، فانطلقت تسري في أوصالها كل موبقات الحضارة الأوروبية ، حتى وصلت في ظل الاحتلال إلى مرحلة الشيوع والاستعلان ، ثم إلى مرتبة الاستقرار والاستحسان ، ثم إلى درجة الشرعية الزائفة ، التي تحميها القوانين الوافدة !

وكان أخطر مافي الأمر أن الاحتلال الكافر يمثل حضارة غالبة ، فيها الصحيح الجيد ، وفيها الردىء الفاسد ، فدخل ــ أو أدخل ــ في روع المغلوبين تلازم الأمرين ، وتوهموا أن مظاهر الانحلال والفساد هي من ضرورات التحضر والمدنية في جوانبها الصحيحة !

وللأسف أخذت أمتنا المفاسد ، ولم تستطع أن تأخذ الصحيح ،

بل ماكان أعداؤها ليسمحوا لها بذلك ، فكانت النتيجة هي بحق ماقاله أحد الكتاب ساخراً :

« نحن جزء من الحضارة الغربية في الفساد ، والخمور ، والتحلل الخلقي » !

يقول الدكتور إبراهيم اللبان في تحليل يكاد يكون عاماً :

« وقد ظهر هذا الانحلال في البداية في السلوك الفردي ، فانحرف الناس عن « نهج الدين » واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية ، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار ، والربا ونحو ذلك ، ثم دب دبيب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال، فتكاسل الناس عن أداء العبادات ، وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ، واستمالت الشباب وغير الشباب ، وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل « للسينما » وكثير من المجلات والصحف ، ابتغاء وفرة الربح والدخل ، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة ، ثم عمّ السيل وطمّ فانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية .. »[1] .

وإذا أخذنا « مصر » على سبيل المثال ، حتى في السنوات الأولى للاحتلال ، فإننا نجد : « الحياة الأوروبية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة ، لاتني ولا تفتر ، فتأسست شركة « التليفونات » الانجليزية سنة ١٨٨٤ ، وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ ..

---

(١) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها .

وافتتحت الخمارات في كل مكان حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال ، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم ، وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد ، لايبالون ديناً ولا دنيا ولا عرفاً ولا مصلحة »[1] .

وتحت مختلف دعاوي المدنية ، والترفيه وأمثالهما أدخل الكفار جيوشاً أخبث من جيوش الاحتلال العسكري ، وهي أفواج الممثلين والممثلات وأمثالهما من البغايا والراقصات ، وشجعوا إنشاء المسارح وفرق الغناء والتمثيل والمراقص والملاهي المتنوعة ، وكانت الأجنبيات أولاً، ثم الوطنيات من غير المسلمات ، هن العنصر الأساسي في هذا الغزو ، وقد شجع ذلك المرأة المسلمة نفسها على السفور والتعري والاختلاط الماجن ، ثم تقليد الكافرات في كل شيء بعد ذلك !!

ولم يكن هذا تغييراً في القشرة السطحية للمجتمع الإسلامي وإنما كان زلزالاً رهيباً ومدمراً ، نقض بنيان الأخلاق من قواعده ، وكانت له نتائج بالغة غاية السوء في كل نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، من شيوع الزنى والربا ، والمسكرات والمخدرات ، والتي أدت بدورها إلى تخريب اقتصادي ، تجسم في انتقال الثروة الوطنية تباعاً إلى أيدي الكفار الأجانب من كل لون ، وكان جزء كبير منها ينتقل إليهم عبر المراقص والخمارات وغانيات أوروبا ، أو ساقطاتها ممن وجدن في ظل الاحتلال مناخاً ومرتعاً خصيباً !.

(١) راجع كتاب « الاتجاهات الوطنية » جـ ١ ص ٢٤٤ ، وفي هوامشه إشارات إلى مراجعه مثل تقرير « كرومر » عن سنة ١٩٠٦ ، وكذلك كتابه : Modern Eaypt

الثاني : الغزو الفكري الشامل

كان الغزو في هذا الطور على غاية الضراوة ، وعنف التركيز والتأثير ، وساعده استيلاء الكفار على مقدرات المسلمين ، ومراكز الحكم والتوجيه ، ثم بريق الحضارة المادية ، وإتقان أصحابها لما خططوا له من ضرب الإسلام في نفوس أبنائه،ومبادرتهم إلى تشديد الكرة عليه ..

ولقد امتد هذا الغزو في كل اتجاه ، ودخل على المسلمين في أزياء خادعة وتحت دعاوى المدنية والتقدمية والتجديد .. الخ . وقد تركز في شعب ثلاث ، كانت كلها شراً ووبالاً على المسلمين ، من حيث ظنوها تقدماً ورقياً ، أو زعم لهم أعداؤهم أنها كذلك سواء في الناحية **التعليمية** ، أو **الثقافية** ، أو **التشريعية** ، فكانت أشبه بما وصف به القرآن الكريم دخان جهنم بشعبه الثلاث ، ونوعية تظليله للمكذبين :

﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَب ، لاظَلِيل ولا يُغْني من اللَّهب ﴾ المرسلات ٣٠ ، ٣١ .

وسنعرض لشعب هذا الغزو الثلاث على الترتيب السابق :

١ ــ الشعبة التعليمية :

وجد التعليم في « المدارس الأجنبية » فرصته الذهبية في ظل الاحتلال ، الذي أطلق أيدي غلاة المبشرين والقساوسة وأضرابهم في وضع برامج التعليم لمدارسهم ، حتى كانوا يلقنون فيها أطفال المسلمين مبادىء المسيحية وتعاليمها، ويحفظونهم صلواتهم ونصوص كتبهم الدينية ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك سابقاً ، ومن أبرز مايمثل هذا ماكتبه (هـ . دانتي) في كتابه عن مؤتمر المبشرين المنعقد في القدس سنة ١٩٣٥ م يقول في أول الكتاب :

« كان التعليم وسيلة قيّمة إلى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية والعبادة المسيحية في نفوس الطلاب » .

والمؤلف يفرق بين المدارس المسيحية والمدارس التبشيرية، بأن الأخيرة تحاول نقل الطلاب من مذاهب مختلفة إلى مذهبها هي ، أما المدارس المسيحية فإنها تحاول أن تهيء للطالب من أي مذهب كان جواً مسيحياً ، وتحمله فيه على ممارسة التقوى المسيحية والسلوك المسيحي .. وخصوصاً مادام طفلاً « **وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة** »[1] .

ويقول المبشر جون موط : « **إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً، ومن أجل ذلك يجب حمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية** »[2] .

(١ ، ٢) راجع كتاب « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ ــ ٦٨ (ط : خامسة) وفي هوامشه مراجع أجنبية عديدة .

وأخطر مافي المسألة أن هؤلاء الأطفال هم خاصة المسلمين وخلاصتهم من ناحية الأسر والبيوتات التي ينتمون إليها ، ومن ناحية الثقافة التي يحصلون عليها ، ومن ناحية المستقبل الذي ينتظرهم في قيادة أمتهم ــ تبعاً لذلك ــ فكرياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، وتعليمياً ، وقانونياً ..!!

أما « المدارس الوطنية » التي تضم عامة أبناء الأمة ممن يقدرون على التعليم ، فقد سارع الاحتلال بالسيطرة عليها ، عن طريق رجاله وعملائه ، الذين تولوا وضع المناهج الجديدة والسهر على تنفيذها ، وخدمة أغراضها القريبة والبعيدة ، مثل **القس الانجليزي « دنلوب »** الذي رسم سياسة التعليم في مصر، ونفذها هو وتلاميذه من بعده ، ولا تزال لها آثار بالغة السوء تطبع بعض جوانب التعليم المصري ومقلديه في الوطن العربي !

حرب على الدين واللغة :

وكان من دأب الاحتلال الدائب أن يبدأ بتطويق التعليم (الديني) وحصاره ، والعمل على سحب جمهوره منه ، إلى وجهة مايسمى بالتعليم (المدني) .

ثم يكرّ على مناهج الدين والتاريخ الإسلامي بالذات في هذه المدارس فيعرضها عرضاً منفراً مغرضاً ، ويجعلها على هامش المنهج الدراسي ، مما يغرس في نفوس الأطفال والتلاميذ عامة عدم الاهتمام بهما ، ويطبعهم على الاعتقاد بعدم جدواهما دراسياً ، مما يرسّب في

نفوسهم بالتالي الاستخفاف بالدين من حيث هو سلوك وعبادات ، وبالتاريخ الإسلامي من حيث هو سجل لأمجاد الأمة الإسلامية والعربية !

والخطير أنه في نفس الوقت كان يقوم بإحياء النعرات الإقليمية الجاهلية ، وتسريبها إلى مناهج الدراسة ، وعرضها من زواياها البراقة التي تغري باعتناقها ، والاعتزاز بها ، والاهتمام بمعرفتها ، كما حدث بالنسبة لتاريخ الفراعنة في مصر ، والأشوريين والبابليين والفينيقيين في غيرها .. الخ .

وأخطر من هذا أن الاحتلال كان يقوم بنصب مثل عليا جديدة أمام أجيال المتعلمين ، فيعرض لهم تاريخ أوروبا وحياة أبطالها وعلمائها ، ومذاهبها الفلسفية والاجتماعية ونظرياتها العلمية ..

كل ذلك يعرض بطريقة لامعة جذابة ليتم استقطاب المسلمين عن دينهم بأحد الطريقين :

طريق الاعتزاز بما قبل الإسلام ، وفي هذا فرقتهم وتباعدهم !

أو **طريق الفناء** في الحضارة الغازية ، وفي هذا محوهم وردتهم !

وكلاهما شر محض ، واستبدال للوجهة الإسلامية ، في صمت قاتل أو في جلبة براقة ، بأسلحة خفية لاتفيق فيها الضحية إلا بعد فوات الأوان .!

ولقد كان من أبشع وسائل الاحتلال في هذا هو تغيير لغة الدراسة ، وفرض لغات المحتلين الغزاة مكان اللغات المحلية في التعليم ،

وفي الحصول على الشهادات التي جعلها مفتاح الوظائف ، وبذلك ضمنوا لأنفسهم ألا يمر متعلم إلا من خلال فكرهم ولغتهم ، ونظرتهم للحياة ، بل حاولوا في ضراوة أن يجعلوا لغتهم هي لغة التخاطب في الشعوب التي ابتليت بهم !!

وقد فعلوا ذلك في الهند ، وجنوب شرق آسيا ، والمغرب العربي ، ومصر وغيرها على تفاوت في درجات نجاح الاحتلال في ذلك !.

ويذكر مؤرخ معاصر ــ على سبيل المثال ــ: « أن الانجليز حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند ، وهي نشر اللغة الانجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، لم يقف في وجههم إلا الإسلام الذي يقدس اللغة العربية ، في حين أن الطريق كان ممهداً في الهند ، التي لم تكن لها لغة مقدسة »[1] .

ولم تنج مصر ــ مع ذلك ــ من المحاولة إلا جزئياً ، ولعوامل خاصة كثيرة أهمها وجود الأزهر ، ولكن بلداً كالجزائر مثلاً ، فرضت عليها الفرنسية في كل مجال ، حتى كان كبار كتابها وأدبائها يعجزون عن التعبير ــ بله التأليف ــ باللغة العربية ، ولم يكن أمام المتعلم فيها إلا إتقان لغة العدو الغازي ، ولولا الجهود الخارقة ــ التي تفوق التصور ــ لجمعيات علماء الجزائر ، ودعاة الإسلام لما بقي

---

(١) تقرير أحمد شفيق باشا المؤرخ المصري ــ عن حالة التعليم في مصر عام ١٨٨٣ في كتابه « مذكراتي في نصف قرن » جـ ٢ ص ٨٨ وما بعدها (يراجع بالتفصيل كتاب الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٩١) .

للغة العربية ، أو الإسلام نفسه هناك عين ولا أثر ، وخاصة في أوساط المثقفين ، والمفكر الجزائري المسلم « مالك بن نبي »[1] رحمه الله أوضح مثال لذلك ؛ إذ لم يستطع إجادة العربية إلا في أخريات حياته ، وكتبه الإسلامية ــ على عمقها ودقتها ــ مكتوبة كلها باللغة الفرنسية !

أما المدارس الأهلية ، وخاصة المدارس العليا والكليات ونحوهما فلها حديث يطول ، وقد قام الاحتلال بتوجيهها بطريق مباشر أو غير مباشر ، حتى أخرجت أخبث الثمار لأمتها . ومنها ــ على سبيل المثال ــ بعض المدارس أو الكليات التي أسسها السير أحمد خان في الهند ، وكلية الآداب في مصر التي قام المستشرقون بدور رئيسي في تربية أجيالها الأولى ، وكان منهم طه حسين وأضرابه ممن قادوا الحركة الفكرية في مصر وغيرها بعد ذلك ، وجنحوا بأمتهم إلى ماأشربته قلوبهم وعقولهم من فكر وافد ، وفلسفات فاسدة ، ومناهج زائفة ، إلا من عصمهم الله وهداهم ، ونجاهم من غوائل هذه التربية الخبيثة !

دور الابتعاث في التدمير :

وفي مجال التعليم أيضاً كانت البعثات تتقاطر على الدول الأوروبية من أبناء المسلمين استكمالاً لتعليمهم العالي وما ماثله ، وكانت هذه هي نهاية المطاف في الإجهاز على بقايا الإسلام ، وطباع الشرق

(١) هو المفكر الإسلامي المعاصر ، وكان يتميز بعمق الفكر والنظر ، وشدة الاعتزاز بالشمول الإسلامي للحياة ، توفي عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣) رحمه الله .

وعاداته في نفوسهم ، حيث لايرجعون إلا وقد تأثروا بوجهة الغرب وفلسفته ، أو أخذوا « طريقة العيش الأوروبي » على حد تعبير المؤرخ « توينبي » ، وبذلك أصبحوا رصيداً في حساب أعداء الإسلام بالسلوك والتربية والعادات الجديدة ، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين كتب على أمتنا أن يقودوا حركتها في شتى مجالات الحياة ، حتى أحلوها دار البوار ، وبدلوا وجهتها في الحياة ، وكانوا هم الجنود المجندة في يد أعداء الإسلام لإحداث هذا الانقلاب الجذري في حياة المسلمين من حيث علموا أو جهلوا ، ومن حيث أرادوا أو انساقوا مع التيار بلا فهم ولا وعي !

ولعل من أسوأ الأمثلة لهذا النمط أن « **قاسم أمين** » بعد أن درس في مدرسة الحقوق المصرية ، ذات المناهج الفرنسية ، وتخرج منها في سنة ١٨٨١ م ذهب إلى فرنسا ليستكمل تعليمه العالي ، متزوداً من شريعة أعداء أمته ودينه ، ولما شاهد الفنون الفرنسية ومتحف « اللوفر » كتب يقول :

« لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموسيقى .. هذه الفنون ترمي جميعاً على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الكمال والجمال ، فإهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور »[١] .

---

(١) كتاب « كلمات » لقاسم أمين ص ٢٤ (وقد جاء هذا في كتاب : قاسم أمين للدكتور ماهر فهمي ص ٣٤) ، ط : وزارة التربية والتعليم المصرية ١٩٦٤ .

ولم يكن هذا بداهة هو سبب تدهور الأمة المصرية، ولا كان هذا ماتحتاجه ولا في المرتبة الأخيرة، خاصة بعد غرقها في الديون الربوية بسبب عبث حاكمها إسماعيل، وموسيقاه، «ودار أوبراه».. الخ!!

ثم هي كانت مشرفة على خراب اقتصادي كامل ويوشك أعداؤها على احتلالها، وكان التشريع الفرنسي قد تغلغل في أحشائها، ولكن «قاسم أمين» كان نموذجاً لما يمكن للغزو الفكري وللتعليم الأجنبي أن يفعلاه في النفوس، من خلع ولائها لأصلها، وفصل مشاعرها عن ظروف أمتها، ودفعها إلى مظاهر فارغة تقتل أصحابها في الرخاء، فكيف بها في أزمان البلاء والعناء؟!

وهذا أيضاً واحد ممن كتب على أمتنا أن يتصدوا لتغيير حياتها الاجتماعية، وأن يتولى أخطر قضايا المجتمع الإسلامي وهي «قضية المرأة»، فقادها هو وشيعته — ومن ورائهم تخطيط الاحتلال — إلى أشنع مصير، وحرروها فعلاً من كل كريم وشريف من القيم والمعايير.

شاهد على قومه:

ونذكر هنا تحليلاً بالغ الخطورة، ويطابق تماماً الواقع الأليم الذي حدثه التعليم الأوروبي في نفوس أبناء المسلمين، وهو صورة تتكرر في كل إقليم، وعلى يد كل كافر محتل مهما اختلفت قوميته وجنسيته!.

كتب (ك. ك. برج) الأستاذ بجامعة، «ليدن» يقول:

« اضطر الأندونوس من جانبهم إلى انتجاع الجامعات الهولندية لاستكمال دراستهم ، وعلى ذلك سكنت في عقل الشباب الأندونيسي الممتاز وقلبه — في أحسن فترات حياته استعداداً — أفكار وآراء مستمدة من الخصائص الهولندية ، والثقافة الهولندية ، مختلفة أتم الاختلاف عن الأفكار التي كانت التقاليد تدعو إلى اعتناقها واحترامها في أندونيسيا ، وفي الجملة ففي حين أن المعلمين الهولنديين كانوا غير قادرين — بسبب انتمائهم لشعب نبذ وحدته الروحية منذ قرون — على أن يحلوا محل الثقافة القديمة ونظام التعليم القديم ، ثقافة جديدة ونظاماً في التعليم جديداً لهما مالسابقيهما من القوة الذاتية ، والتماسك والملاءمة لحال البلاد ، نجد أولئك المعلمين من جهة أخرى ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها ، ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم ، وأساس الإسلام أيضاً .

إن التعليم الأوروبي يعمل على قلب وجهة نظر الناس قلبا لايقف عند حد ، وقوة الضربة التي تعانيها الثقافة الأهلية كل يوم إنما يحس بها تمام الإحساس الأندونوس الذين هم أكبر سناً ، أما الجيل الجديد فقد شب بين أحضان النظام الجديد ، ولم يظهره المعلم الأوروبي على شيء من الثقافة الأهلية ، حتى إن هذا الجيل لايحس بما بين الثقافتين من فرق إحساساً قوياً .

إن تغير نزعة **الشباب الأندونوسي** المستنير إزاء ثقافته القديمة بتأثير التعليم الأوروبي وبتأثير البيئة الهولندية يشبه ماحدث عند **الشباب المصري من نصف قرن** أو ثلاثة أرباع قرن ، ومسلك

الشباب الأندونوسي إزاء التعليم الغربي يسير على مثل ماسار في مصر ، يظهر الشباب عداءه للعقلية الغربية ولكنه لايستطيع في الوقت نفسه الاستغناء عن الثقافة الغربية ، وهو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم ذلك منقطع من وجوه كثيرة — بسبب ثقافته الغربية — عن جمهور الأمة التي ولد فيها »[1] .

ويقول : « **للكثير من صغار الشباب المثقفين مسلك إزاء الإسلام ، يختلف عن مسلك الجيل السابق أتم الاختلاف ، فقد أصبحوا بتأثير التعليم العلماني ، لايعبأون بالدين في الجملة** »[2] .

٢ — الشعبة الثقافية :

نعني بها مايتعلق بفكر العدو وفلسفة حياته وأنماط سلوكه ، وعاداته وتقاليده الخاصة التي تغاير في جوهرها الكلي أنماط الحياة الإسلامية ، ثم هي ضرب يجاور التعليم المدرسي ، ويزيد عليه امتداداً مع مجالات الحياة المتعددة .

وفي هذا المجال العريض انطلق أئمة الكفر يغزون المسلمين غزواً مركزاً ، يستهدف هدفاً محدداً مرسوماً هو : ردة المسلمين عن دينهم ، إن لم يكن « **بالتنصير** » المباشر ، « **فبالتغريب** » الكامل ، الذي يعني فناء مطلقاً في حضارة أوروبا « خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، مايحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب »[3] .

---

(١) كتاب : « وجهة الإسلام » ص ١٩٠ (ترجمة أبي ريدة) .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٣) هذه كلمات د . طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » وهي تمثل مأساة أجيال كاملة أعطت أوروبا ولاءها نتيجة هذا الغزو الفكري العنيف !!

سر تحالف الأضداد :

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعاونت الأطراف المتناقضة جميعاً من سياسيين واقتصاديين ، ومبشرين ومستشرقين ، وممثلين وراقصين .. الخ .

بل في سبيل هذا الهدف كانت تتلاقى دول الاستعمار المتنافسة على المغانم والأسلاب ، المتصارعة في كل الميادين ، إلا ميدان الكيد للإسلام ، بل في سبيله كانت تتناسى العداوات التقليدية الرهيبة بين المذاهب المسيحية وكنائسها المختلفة ، لأنهم كانوا يرون أنفسهم بإزاء عدو مشترك هو الإسلام المتمثل في مصدريه الأصيلين : الكتاب والسنة ، وفي تاريخه المجيد ، وسيرة نبيه ﷺ ، والسلف الصالح من بعده .

ولقد كان أئمة الكفر على غاية الدهاء ، حيث حددوا هدفهم من أول الطريق ، وسددوا الرماية إلى قلبه بلا تسويف ، في الوقت الذي كان كثير من قادة هذه الأمة لايفقهون هذه الحقيقة كوعي عدوهم لها ، أو يجهلونها البتة !!

بدائل عن الإسلام :

لم يكن أئمة الكفر يخشون النزعات الوطنية ، ولا النعرات القومية ، بل كانوا في أكثر الأحيان هم الذين اصطنعوها ، وأغروا المسلمين بها ، وزينوها لهم ، وعلموهم إياها ، لتكون مزاحماً للرابطة

الإسلامية ، وبديلاً يمكن احتواؤه والتعامل معه وخديعة أصحابه ، بعد أن استعصى عليهم دائماً احتواء الإسلام بمبادئه الفذة ، ودعوته الفارعة للجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل !

ومن أخبث أساليب هذا الغزو الثقافي المبكرة ، الإلحاح على استبدال كلمة « الأجانب » « بالكفار » ، حتى يخف ويتميع في النفوس ضرورة جهادهم وحربهم ، أو على الأقل لاتصبح عقيدة مقدسة تؤجج الضمائر وتلهب المشاعر !!

وقد استدرجوا قادة الأمم المسلمة إلى هذا المنزلق الخطير ، فكانت النتيجة المروعة ضعف هذه الأمم وتشتتها في ظل الوطنية والقومية والإقليمية ، مما أطال فترة الاحتلال ، ومدّ له في حبال الأمان ، على عكس مارأيناه في الفترات السابقة ، كمقاومة الحملة الفرنسية في مصر ، وما فعله عبد القادر الجزائري وعمر المختار — في الشمال الافريقي — وغيرهما من دعاة الجهاد على النمط الإسلامي !

ومن ثم لم يستطع الزعماء الوطنيون ، المفرغون من المضمون الإسلامي ، أن يستثيروا عزائم أممهم ، ولا أن يستنهضوها لعمل حاسم ، ولذلك كانوا يلجأون للإسلام في الأزمات الحازبة ، حتى إذا حرك الأمم وأجج العزائم ، ودفع حملته المغارم ، كان جزاؤه الخيانة والطرد ، والإبعاد عن نشاط الحياة بعد تمكن أدعياء الزعامة[1]

---

(١) وفي هذا المجال نذكر دور الأزهر في الثورة المصرية (١٩١٩) م ، ودور علماء الإسلام ودعاته في الجزائر والمغرب وتونس والهند ، حتى طاغية الترك « مصطفى كمال » أحرز انتصاراته الأولى باستثارة الإسلام في نفوس الأتراك ، ومع هذا لم يجد الإسلام أمة =

الكفار لايخافون إلا الإسلام :

لذلك كان مايشغل بال أئمة الكفر ، هو قدرة الإسلام العارمة على الإلهاب والتأجيج . وفي ذلك يقول الأستاذ « ماسينيون » :

« .. الحركات التي تواجهنا في الغالب كالبرق الخاطف .. والحركات الفكرية في الإسلام تستعد في خفاء وصمت ، وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير .. وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة نستطيع تحليل مايقع هكذا :

أول الأدوار هو دور « النداء الباطن » الذي يهيب بالضمير الاجتماعي ويوقظه ، وإن ظل في حالة « قعود » أو « تقية » أو « كتمان » ، وإذا نضج هذا النداء تبعه الدور الثاني مباشرة وهو دور « الدعوة » للنفير العام ، الذي يجاهد جنوده ليستردوا بالسيف ماتعطل من حقوق الشريعة .

هذا هو المفهوم الذي يصدق على كل الحركات ، والذي يسمى عند مختلف الجماعات ، وفي مختلف الأوقات : « بالظهور » ، أو « بالدفع » ، أو « الخروج » ، أو « الشراء » (شراء الإنسان نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واه ، تقوم عليه المنشآت الأوروبية في بلاد الإسلام،فبعد أعوام

= تحمله للناس بعد استقلالها ، بل كان ظلم ذوي القربى أشد وأنكد عليه من كيد أعدائه الكاشحين !.

من السكينة ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ماتكون توقعا لها»[1] .

تربية الزعامات على غير الإسلام :

وهذا تحليل صادق يؤكد فهم أعدائنا لطبيعة الإسلام ، ويوضح وضعهم لهذا الأمر في بؤرة الاعتبار ، عند تصميم خطط الغزو الفكري ، ورسم طرق التعامل مع المسلمين على المدى البعيد ، وهذا مايزيده المستشرق الانجليزي « جب » توضيحاً إذ يقول :

« هناك ظاهرة كثيراً مايهملها الباحثون في حركات المجتمع الإسلامي ، مهما كان نوعها ، وهي أنها تنضج بسرعة مدهشة ، حتى إن وجودها ـــ كما أشار الأستاذ « ماسينيون » ـــ يندر أن يخطر على بال أحد قبل أن يندلع لهيبها ويروّع العالم ، والمسألة الكبرى هي مسألة الزعامة ، **فحينما يجد الإسلام «صلاح الدين» الجديد ، رجلاً يجمع بين الحنكة السياسية العظيمة ، وبين شعور برسالته الدينية يبلغ أعماق نفسه ، فإن ذلك ينحل من تلقاء نفسه»**[2] .

لاجرم بعد هذا الفهم الدقيق لطبيعة الإسلام ، أن تحكم الخطط لضربه وتصفيته ، وخاصة في نفوس الزعامات التي تقود حركة أمته حتى لاينبعث منها أمثال « صلاح الدين » ، وبالتالي تموت حركة بعث الإسلام وإحياء أمته ، أو يطويها الطوفان الغازي !!

---

(١) كتاب : وجهة الإسلام ص ٥٤ ـــ ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٨ ـــ ٢٣٩ .

من أساليب الغزو الرهيب :

وقد تعددت أساليب هذا الغزو الثقافي وتنوعت . ومنها على سبيل الإيجاز والتمثيل :

(أ) **سيل الكتب والمطبوعات** المتنوعة التي تمجد أوروبا ، وتصف حضارتها وتطورها ، وكيف وصلت إلى هذا كله عبر الصراع مع الكنيسة ورجال الدين ، وعزلهم عن الحياة ، والدعوة (تصريحاً ، أو تلميحاً) إلى سحب هذا المعنى على كل دين ، باعتباره طوراً متخلفاً من أطوار الحياة ، أدى دوره في القرون الوسيطة ، ولا يصلح لمجارلة العصر الحاضر بتقدمه العلمى .... إلى آخر مايزعمون !

وكان من أخطر الأدوات العصرية التي اعتمدوا عليها : « **الصحافة** » باعتبارها أكثر شيوعاً ، وأبعد تأثيراً ، سواء كانت محلية ، أو مستوردة مجلوبة من وراء البحار والحدود ، تحمل للمسلمين قيماً جديدة ، وتحفل بضروب من الأفكار المخربة ، وأحاديث الجنس الفاضحة ، والصور العارية ، والقصص البذيئة ، والمقالات والبحوث التي تتناول كثيراً من المقدسات الدينية بالنقد والتجريح في غير ماحرج !

ولقد يكون هذا شيئاً عادياً بالنسبة لمجتمعاتنا بعد أن قطعت شوطاً طويلاً في الانحلال والتفرنج ، ثم قد يكون هذا كله أيسر وأسهل بالنسبة للمجتمع الأوروبي ، الذي قطع شوطاً أبعد في التمرد على كنيسته ، وما تمثله من قيم ومثل ، وسقط في لجة الانحلال

الجنسي .. الخ !

ولكن ماكان ينشر على مجتمعاتنا في ذلك الوقت ــ حين كانت تتسم بالحفاظ على بقايا دينها ــ كان له وقع الزلازل والبراكين في تصديع عقدة التماسك الديني ، وفي تشجيع الانحراف والفساد تحت مظلة الاحتلال ، وفي حماية قوانينه المستجلبة من بيئته الفاسدة !

وكان من أكثر الأشياء تلبيساً على الأمة ، وتغريراً بها ، أن الصحف الوطنية نفسها التي كانت تحارب الاحتلال ، وتصاوله في ميدان السياسة ، ترضى ــ في نفس الوقت ــ بدور التابع الضائع في ميدان الفكر والثقافة ، بل وربما تصدى بعضها لحرب الإسلام كحرب العدو وأشد ، فضلاً عما كانت تقوم به من تشجيع النعرات القومية ، والإقليمية ، وتسريب ألوان الحياة الغربية إلى جمهورها ، لأن القائمين عليها في أغلب الأحيان كانوا تلاميذ أوفياء للحضارة الأوروبية « بخيرها وشرها ..! » ، بل ربما كان كثير منهم في داخلهم عباداً خاشعين في محاريبها الخسيسة !

ليس من شك في أن الصحافة وأمثالها أسلحة عظيمة في نهضات الأمم وتطورها في العصر الحاضر ، ولكنها في ظل الاحتلال ، وعلى يد تلاميذه ، تحولت إلى أسلحة فاسدة ، مرتدة إلى صدور أمتها اجتماعياً وفكرياً ودينياً !

ولندع الحديث لراصد أوروبي خبير ، يشهد على قومه ، لتتضح لنا أبعاد المعركة ، وأنها عداوة شاملة للإسلام !! يقول « جب » المستشرق الانجليزي ، حين يستعرض أنجح الوسائل لتغريب المسلمين

تغريباً حقيقياً ، يهضمون فيه الحضارة الغربية ، حتى تصبح فيهم شيئاً ذاتياً لامجرد تقليد للغرب ، يقول :

« وللوصول إلى هذا التطور الأبعد ... الذي تصبح الأشكال الخارجية بدونه مجرد مظاهر سطحية ، يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس ، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأي عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة » ثم يستطرد مقرراً :

« إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي » .

كذلك يبدي « جب » ملاحظة عن النتائج الرهيبة لهذا الغزو فيقول :

« إن النشاط التعليمي والثقافي — عن طريق المدارس العصرية والصحافة — قد ترك في المسلمين — من غير وعي منهم — أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد .. وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ماتركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار .

إن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه ، ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته ، فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه وهي — في كثير من الأحيان — تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم . وبذلك فقد

الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محدودة »[1] .

(ب) الشبهات الدينية والطعن في الإسلام :

وهذه الشبهات والمطاعن نوعان :

النوع الأول : شبهات ومطاعن ساذجة ، ومعظمها كان يصدر عن المبشرين المتعصبين ، ولغرض ديني محض ، متصورين أنهم بذلك يدخلون المسلمين في دينهم ، ولم يكن لهذا النوع أثر يذكر ، بل ربما أتى بعكس ماأريد منه ، لأنه يهيج العاطفة الإسلامية ، لذلك غيروا خطتهم ، واعتمدوا على مدخل آخر بغيرون به « المفاهيم » بواسطة الاحتكاك اليومي في التعليم ، والطب وملاجىء الأيتام ونحو ذلك[2]

وفي مقال كتبه « **ألمردوغلاس** » بعنوان « كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر ؟» يعلق على هذه الوسائل فيقول :

« إن هذه السبل لاتجعل الأطفال نصارى ، ولكنها لاتبقيهم مسلمين كآبائهم ، ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمال إفريقية ومصر »[3] .

---

(١) هذه نقول من ترجمة الدكتور محمد حسين لبعض فقرات كتاب : « وجهة الإسلام » . تراجع في كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٥ .

(٢) راجع في ذلك تفصيلا « الغارة على العالم الإسلامي » ص ٥١ وما بعدها .

(٣) راجع كتاب : التبشير والاستعمار ص ١٩٤ .

النوع الثاني : الدراسات الاستشراقية !

وهي دراسات في كثير من نواحيها تتميز بالصبر والجلد ، ومحاولة الاستيعاب والتحليل ، ولكنها في نفس الوقت تحتوي على أخطاء جسيمة ، عمداً أو جهلاً ، ثم هي في غالبها لم يقصد بها خدمة العلم والفكر ، ولا إشباع رغبة خاصة أو عامة في البحث والاطلاع ، وإنما كانت في جملتها خدمة مباشرة للدول الاستعمارية ، أو الكنائس الأوروبية ، بغرض تطويق الإسلام وضربه على وعي وبصر به ، واقتلاع جوهره الحي النابض الذي يشكل أكبر الأخطار بالنسبة لهم .

ومن ثم حفلت هذه الدراسات بضروب التشكيك ، والنقد الجائر ، وانطلقت منها الشبهات المدروسة واحدة تلو الأخرى ، طعناً في كل نواحي الإسلام بدءاً بالقرآن العظيم ذاته ، وانتهاء بسنة النبي ﷺ ورواتها ، وما بين ذلك من اتهام للنبي ﷺ وأصحابه ، وطمس لكل معالم المجد والخير في التاريخ الإسلامي المشرق ، حتى لنستطيع القول إنه لم تسلم ناحية واحدة من نواحي الإسلام : عقيدة ، ومنهجاً ، ونظاماً ، وتطبيقاً ، وتاريخاً ، وأمة ، بل أرسلت سهام حاقدة ، من هذه الدراسات المنظمة ، التي تصطنع منهجاً في البحث يجذب القارىء المسلم ، الذي لم ينل قسطاً وافياً من التعليم الصحيح عن دينه وتاريخه الإسلامي ، ولذلك سهل تعبئته بهذه الدراسات الخبيثة ، وتطاولت في تشكيل فكر المثقفين المسلمين حتى فيما يتعلق بفهم الإسلام نفسه .

ومتى كان ذلك ؟!

في وقت كانت فيه هذه الأجيال مهزومة سياسياً ونفسياً ، وموصومة بالتخلف مادياً وحضارياً ، ومفرّغة من أصالتها روحياً وعلمياً ، ومحرومة من أي تربية دينية صحيحة ، أو تعليم إسلامي سليم ، بل كانت ـــ كما قلنا ـــ مشحونة بأفكار وأنماط الحضارة المادية الغالبة ، وهي في جملتها ذات طابع إلحادي مناقض للإسلام !

وتحت ستار هذه الدراسات الاستشراقية الخبيثة ، وما ادعته من منهجية علمية كاذبة ، أمكن إصابة مقاتل هذه الأمم المسلمة-! خاصة حين اصطنعوا لهم تلاميذ من بينها ، أرضعوهم طرائقهم وأفكارهم ، ودفعوا بهم إلى قلب أمتهم ليكونوا أقدر على غزو حصونها من داخلها ، والإتيان عليها من قواعدها !

ولقد يفسر لنا هذا تشجيع الاحتلال لإقامة كليات الآداب وأشباهها ابتداء ، وفي بلد كمصر ـــ على سبيل المثال ـــ دفع إلى كلية الآداب في عهدها الأول بمستشرقيه ، وصنائعه ، والمفتونين بفكرة ووجهة نظر الغرب ، ليناقشـوا أخطر قضايا الإسلام تحت ستار العلم ، وحرية الفكر ، وجدّة المناهج !

ومن المؤكد ـــ علمياً وتاريخياً ـــ أن ماطلع به الدكتور طه حسين على أمته من طعن في القرآن والسنة ، ومن تكذيب لقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ومن أقوال في الشعر الجاهلي ، ونحوه.. كل ذلك قد استقاه مباشرة من أساتذته في «الجامعة الأهلية» المصرية ، كالدكتور « جويدي » الإيطالي ، وكذلك من غلاة

المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام كالأستاذ « ماسنيون » اليهودي الفرنسي ، السربوني ، وهو أستاذه ، وكذلك « مرجليوث » الانجليزي[1] .



(١) راجع في هذا كتاب « نقض كتاب الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله !.

وكذلك مقالتين هامتين للأستاذين فتحي رضوان . ومحمد صبيح ، بالعدد الخاص من مجلة « الثقافة » المصرية ، الذي صدر في ديسمبر ١٩٧٣ تأبيناً لطه حسين .

خطة المستشرقين في الهجوم على الإسلام وآثارها المدمرة :

ولقد دأب هؤلاء على خطة مدروسة ، يلحّون بها على فكر الطلائع المثقفة من أبناء المسلمين ، وخاصة المفكرين والأدباء ، وأصحاب الدراسات القانونية في نمطها الأوروبي وأمثالهم .

وكانت هذه الخطة متعددة الوجوه والأبعاد ، تعتمد على إلقاء الشك والحيرة في نفس المثقف المسلم أوّلاً ، وتستمر — ثانياً — على نقد جوانب معينة من الإسلام في إلحاح مريب ، حتى تثبت في الأذهان مفاهيم مشوهة ، ثم تسرب إلى هذه النفوس الفارغة — من غير وعي منها في الغالب — تفسيرات وتخريجات جديدة لأحكام الإسلام تلتوي بها عن حقيقتها ومقاصدها تماماً !

ومن أمثلة ذلك : إلحاحهم على نقد مبدأ تعدد الزوجات عامة ، وزوجات النبي ﷺ خاصة ، وتجريح التشريع الإسلامى في هذا الشأن ، وكذلك نقدهم الدائب للفكرة التي اخترعوها وجسموها وألصقوها بالإسلام ، وهي فكرة انتشاره بالسيف ، وكذلك إلحاحهم على اتهام الإسلام بالجمود والرجعية ، وأنه هو العائق لانطلاق المسلمين وتقدمهم، ثم المحاولة الدائبة لإقناع المسلمين « بعلمانية » الدولة ووجوب فصل الدين عنها ، حتى يتقدموا مادياً وحضارياً كما فعلت أوروبا !

من آثار الغزو الاستشراقي :

وقد أثمرت هذه المحاولات الخبيثة — بكثرة الإلحاح وتنوع

وسائله — انقلاباً فكرياً في مفاهيم هذه الطلائع المثقفة ، والتي كانت تؤول إليها قيادة أمتها فكرياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وقانونياً .. إلخ ، فوقف بعضهم حينئذ حائراً متشككاً في دينه العظيم ، وبذلك عزل هؤلاء عن المعركة الفكرية الضارية ، وأمكن شل إرادتهم — من أول الطريق — فلم يستطيعوا الدفاع عن مآثرهم الخالدة .

وانماع كثير منهم في التيار ، فانقلبوا يهاجمون دينهم ويسخرون منه ، ووقف آخرون موقف الخجل من دينهم وتاريخهم ، أو محاولين الدفاع عنه عصبية وحمية لاعن اقتناع بتفرده في السمو والعظمة !.

وكان من أخبث آثار هذا الهجوم الفكري هو قيام مدرسة فكرية جديدة بين المسلمين ، ترمي إلى تقريب الشقة بين تعاليم الإسلام ، وبين ماجاءت به حضارة الغرب من أفكار ونتائج ونظريات في ميادين الحياة .

وكان عماد هذا العمل هو تفسير الإسلام تفسيراً عصرياً ، يلائم الفكر السائد ، ومحاولة إيجاد نقط التقاء بين الخطين على تباينهما ، أو على الأقل تباعدهما .

وقد ألجأ الهجوم الفكري هذه المدارس إلى مواقف دفاعية غريبة عن الإسلام ، إذ جرّدته من كثير من أحكامه الصريحة ، وجاءت له بمعان جديدة بعيدة كل البعد عما تلقاه المسلمون عن النبي ﷺ وأصحابه ، وذلك مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحدود ، والربا ، والتماثيل ، حتى الجهاد في سبيل الله لم يسلم من التحوير ، والإغراب ، وغير ذلك كثير !

وهذه الأمور كلها بلغ فيها الإسلام الغاية العليا من الإحكام والسمو ، ولكنها عادت في منطق العقول المهزومة، وفي رؤية المدارس المغلوبة أمام الضغط الفكري الغازي ــ عادت مثالب ، أو نقاط ضعف في الإسلام تحتاج إلى دفاع ، أو هي ــ في أوهامهم ــ كانت فضائل صالحة لزمانها ، واحتاج التطور البشري إلى تعديلها .. إلخ !

ومن هنا رأينا منهم من يفرق بين (ربا الإنتاج) ، و (ربا الاستهلاك) ، ومنهم من يحاول إثبات منع تعدد الزوجات مستدلاً بالقرآن العظيم ذاته ، لأنه ــ بزعمهم ــ علقه على مستحيل وهو العدل المنفي في قوله تعالى : ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم**﴾ النساء : ١٢٩ ، وليس بعد هذا تخليط أو التواء !

وكذلك رأينا من يبيح إقامة التماثيل محاولاً ليَّ أعناق النصوص الإسلامية الصريحة ، ليبرر أنماطاً جاهلية ، جاءت في ركاب الحضارة الغازية ، وهي داء قديم في الأمم الضالة !!

ومن هنا أيضاً رأينا أعجب شيء في تاريخ المسلمين ، واحداً ممن ينتسب للإسلام ويتسمى باسم « **العلماء** » ويتخرج من أعظم معاهد الإسلام العلمية ، يقوم على رؤوس الأشهاد بكتاب يجرد فيه الإسلام من جوانب الحكم والتنفيذ ، ويرده إلى مفهوم أوروبي المولد والمنشأ[1] ، وينتهي به إلى معنى ضيق محدود ، فيدعي أنه « رسالة

(١) راجع في هذا « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » جـ ٢ ص ٧٤ حيث يذكر أمثلة تفصيلية لاعتماد « علي عبد الرازق » حتى فيما يتعلق بالإسلام على كتب المستشرقين ، وراجع كتاب « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ، حيث يذكر تأثره بالفكر الغربي (فصل دين لا دولة) .

لاحكم ، ودين لادولة »[1] وأغرب من هذا أن يستدل بنصوص القرآن الكريم ، فيحرف الكلم فيها عن مواضعه ، ويعتسف تأويلها ويأتي بما لم يقله أحد قبله[2] .

أما الحدود الإسلامية فلم يكتف أعداء الإسلام بتعطيلها ، بل ظلوا ينعون عليها قسوتها ، وهمجيتها الوحشية ، حتى ألقوا في روع المسلمين تخلفها عن الحياة العصرية ، وعن نتائج تجاربها العلمية والاجتماعية ، وبثوا في قلوب المسلمين النفرة والفزع منها ، وجعلوها دائماً عنواناً مرادفاً لمعنى « الحكم بالإسلام » مع أنها جزء من منهاجه الشامل ، يأتي في موضعه الحكيم ، ليحقق أعظم النتائج وأبرها بالأفراد والمجتمعات ، وبعد أن سبق ببرنامج كامل في العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات[3] .

ولكي يجاري بعض المسلمين هذا الفكر الغازي أخذوا يأتون بالمضحكات المبكيات في تفسير النصوص الشرعية ، وخاصة المتعلقة بالحدود ، ويحرفون فيها الأحكام تحريفاً ، ويلتمسون لذلك أوهى الأدلة وأسقط البراهين ، حتى ليصدق على هذا النوع من الفكر ماوصفه به بعض الكاتبين من أنه :

---

(١) هذا عنوان الباب الثالث من كتاب : « الإسلام وأصول الحكم » ، ص ٦٤ وما بعدها.

(٢) راجع في بيان هذا والرد عليه كتابي « المنهاج القرآني في التشريع » ص ٢٩٥ وما بعدها (من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة) . وأيضاً كتاب : « المعاملات في الإسلام » ص ٤٩ — ٥٧ .

(٣) راجع فى تفصيل ذلك والرد عليه كتابى السابق : (المعاملات في الإسلام) .

« الفكر الإسلامي المغرّب » « Westernized »[1] بل نستطيع القول إنه شر من ذلك ، لأنه حين صدر من المسلمين أنفسهم حمل كل ضروب التلبيس ، ذلك لأنه فكر العدو الغازي ، ورد متنكراً في ثياب وطنية ذاتية ، ينبعث على المسلمين من داخلهم ، فلا يحسون بفداحته إحساسهم بفداحة الفكر الوافد على لسان العدو من مبشرين ، ومستشرقين !

ومن أمثلة هذا اللغو المثير ، ماقاله بعضهم : « من أن النص القرآني لم ترد فيه عبارة من سرق ، بل ورد فيه (والسارق والسارقة) ، وهاتان الكلمتان وصفان لافعلان ، والوصف لايتحقق في الشخص إلا بالتكرار ، فلا يقال عمن ظهر منه الجود مرة أو مرتين إنه جواد .

ويرى البعض أن عقوبة قطع اليد إنما يقصد بها أن تكون أقصى العقوبة للسارق العائد ، الذي تكررت منه السرقة ، أي أنه يجوز العدول عن هذه العقوبة القصوى ، في بعض الحالات ، إلى عقوبات أخرى رادعة .. »[2] .

وفي النهاية كان من أخطر وأخبث نتائج هذا الغزو أن انحلت

---

(١) كتاب : « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ، ص ١٧٦ ، وإن كنا نرى تعديل العبارة لأن هذا ليس فكراً إسلامياً ، وإنما هو فكر بعض المنتسبين للإسلام !! والإسلام وأمته بريئان من هذا اللون كله .

(٢) راجع كتاب « مبادىء نظام الحكم في الإسلام » ص ٣٩٨ — ٤٠١ وفي هوامشه مراجعه وفيه كلام كثير حول هذا الهراء !!

روح المقاومة والجهاد، أو فترت وتراخت عن العهد بها دائماً، ذلك العهد الذي وثقه القرآن عبر التاريخ في نفوس المسلمين، والذي كان يرهب أعداء الله دائماً !

وقد سارت حركة الاستشراق في عديد من الاتجاهات لحل عقدة الجهاد وتهوينها في نفس المسلم، منها الدعوة إلى الحياة « الروحية المثالية »، وتمجيد النزعة الصوفية الاعتزالية، والنعي الدائب على غزوات الإسلام وفتوحاته، وانتشاره بالقوة بين الأمم، وادعاء تناقضه بين المناداة بالجهاد، وتقريره للمبدأ العام ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ البقرة : ٢٥٦ .. إلخ ...

ومن وسائلهم في ذلك مايقرره الأستاذ المودودي :

« وقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة « الجهاد » بالحرب المقدسة « Holy War »، إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم .

وقد فسروها تفسيراً منكراً، وتفننوا فيه وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني الملفقة، حتى أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق، والهمجية وسفك الدماء، وقد كان من سحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة « الجهاد » تمثلت أمام أعينهم مواكب من الهمج المحتشدة مصلتة سيوفها، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب متطاير من عيونها شرر الفتك والنهب، عالية أصواتها بهتاف « الله أكبر » .. ماأن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وخيرته بين أن يقول

كلمة « لا إله إلا الله » أو أن يضرب عنقه »[1] .

وكان رد الفعل لهذا في أوساط كثير من مثقفي المسلمين — وخاصة الذين درسوا في أوروبا — مزيجاً من الخجل ، أو التبرير أو التسليم بهذه الأباطيل والانخداع بها ، ومتابعة أعداء الإسلام في القول بها ، والدعوة إلى فهم جديد للإسلام يجعله ديناً مقبولاً في نظر العالم المتحضر ، (مع أنهم لايرضون عنا أبدا حتى نتبع ملتهم) !

ومن آثار ذلك دعوة السير أحمد خان في الهند لتحريف معنى الجهاد ، وتفسيره لآيات القتال تفسيراً غاية في الالتواء ، يبطلها من حيث المعنى أو الزمان ، ومنه أيضاً دعاوي المذهب القادياني الذي يجيز نسخ الأحكام ، وينادي بتطوير الإسلام ليصلح — في زعمهم — لهذا الزمان !

ومن هذا الباب أيضاً تلك الآراء التي تفسر الجهاد تفسيراً دفاعياً محضاً ، وتجرد الإسلام من أصله الأصيل في الدعوة إلى دين الحق ، دعوة تحرسها قوة قادرة على ردع أعداء الله ، وعلى شق الطريق أمام الدعاة ليبلغوا كلمة الله ، وقادرة كذلك على تأمين الشعوب والأمم من عسف طواغيتها لتقبل الإسلام ، أو على الأقل تسالمه حتى يمضي إلى غايته ، وهذه إحدى غايات القتال التى حدَّدها القرآن الكريم :
﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾
الأنفال / ٣٩

---

(١) رسالة « الجهاد في سبيل الله » للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٣ وما بعدها بتصرف يسير .

ونلفت النظر — في ختام هذه العجالة — إلى البحث القيم الذي لخص الدراسات الاستشراقية في جوانبها الثلاثة وهي : (الأسس التي قامت عليها ، وتقديرها لمصادر الإسلام ، وتقييمها للإسلام كدين) والتي استهدفت غرس عديد من المعاني في نفوس المسلمين . منها :

« **الجماعة الإسلامية**— كي تتطور — يجب أن تسير وفق المثل الغربية ، وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية ... إذ اتجاهات الغربيين في الفكر والحياة قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، استخدموا في تكوينها الطريقة « العلمية » ، وهي طريقة لاتتأثر بخرافة ، أو عقيدة خاصة بل تستهدف خير الإنسانية وحدها .

وإذن يجب على المسلمين باسم (العلم) ، و (التطور) ، و (الخير العام) ، أن يكونوا مسيحيين في موقفهم في الحياة ، وفي فهمهم الإسلام كدين ، ولا يجب أن يعتنقوا المسيحية كدين ، بل يجب فقط أن يكون سلوكهم في الحياة سلوكاً مسيحياً ، على نمط موقف « الجماعة الغربية » وأن يضعوا دينهم على نمط وضع المسيحية في المجتمع الغربي ، أعني نمط (العزلة) عن الحياة العامة ، وطريق ذلك :

— أن يبعدوه عن الحكومة ، والدولة ، والسيادة العامة .

— وعن علاقة الأفراد بعضهم مع بعض .

— وأن ينحوا عنه مظاهر القوة المادية وأسبابها ، كالجهاد والرغبة في الحروب والاعتداء .

ـ وأن ينحوا عنه مظهر « العنصرية » و « الاستعلاء الذاتي » المتمثل في عدم قبول ولاية غير المسلم على المسلم ، وفي عدم زواج المسلمة بغير المسلم .

ـ وأن ينحوا عنه كذلك مظاهر « الحياة الحيوانية » المتمثلة في إباحة تعدد الزوجات .. »[1] .

٣ ـ الشعبة التشريعية[2] :

ظلت الشريعة الإسلامية ـ بمعناها القانوني ـ تحكم المجتمعات الإسلامية أكثر من ألف سنة ، وتلبي حاجات هذه المجتمعات ، وتساير قضايا حياتها المتجددة ابتداء من مجتمع شبه الجزيرة العربية القريب من البداوة ، وانتهاء بالمجتمعات في ذروة الحضارة ، والتي بلغت حد التفوق العالمي ، والسيادة الواسعة في دمشق وبغداد ومصر والأندلس .. إلخ .

ولكن هذه الشريعة العظيمة واجهت في القرنين الأخيرين حرباً عاصفة من التشكيك في صلاحيتها ، والتآمر الخبيث على وجودها ، والعمل الجاد لطردها من ميادين الحياة ، تحت مختلف الدعاوي ، كرميها بالجمود ، والتعصب ، والتخلف عن مسايرة الحياة .. إلخ .

وقد استطاعت هذه السموم الفكرية ، أن تسري في عقول

---

(١) راجع هذا البحث بتمامه في كتاب « الفكر الإسلامي الحديث » للدكتور محمد البهي ص ١٩٣ ـ ١٩٨ . وقد نقلنا عنه ببعض التصرف .

(٢) مرّ ذكر الشعبة التعليمية ص ٧٧ ، والشعبة الثقافية ص ٨٥ .

مريضة من المسلمين أنفسهم ، حتى انتهت إلى ماقلناه سابقاً من بداية انهيار عهد الحكم بالشريعة العظيمة قبيل الاحتلال !

وفي عهد الكفار المحتلين ، تم تنفيذ مخططاتهم الحاقدة ، فأسقطوا هذه الشريعة عن عمد ، بالخديعة تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، وبتأثير الكفار المباشر أو بأيديهم الباغية ، ثم وضعوا مكانها شتاتاً من شرائع الكفار وقوانينهم !

وقد بلغت الخديعة غايتها حين أوهموا أغرار المسلمين بأن شريعتهم قد سقطت في صراع المناهج ، وسباق الشرائع المتطورة !

وينبغي أن نفرق هنا بين الشريعة الإسلامية في أصولها ومبادئها وأحكامها كما جاء بها الوحي ، وأثرت عن النبي ﷺ وعن أصحابه ، وبين « الفقه » الذي يقوم على الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية ، وقد أصابه الركود مثل ماأصاب أمته جميعاً في كل نواحي حياتها ، ولكن الشريعة بأصولها ظلت على حالها شامخة راسخة لا تدانيها اجتهادات العقول ، ولا تقاربها تجارب أوروبا القانونية ، ولا شرائعها ، وأنظمتها التى كانت دائماً محل نظر وخلاف شديد بين أساطين الفكر والقانون فيها ، والذين جاءوا بمذاهب ومدارس متعددة ومتناقضة ، كما هو معلوم لمن درس نظريات القانون الحديث وتاريخه .

ومن العجيب أنه في الوقت الذي كانت تسري فيه الغفلة إلى كثير من المسلمين تجاه شريعتهم ، كان سمو الشريعة الإسلامية وتفوقها المعجز يدفعان بعض الأوروبيين أنفسهم لإنصاف هذه

الشريعة والإشادة بها .

يقول الدكتور « أتريكو أنساباتو » في كتابه « الإسلام وسياسة الخلفاء » مقرراً ومحذراً :

« إن الإسلام إذا كان محدوداً غير متغير في شكله ، فإنه مع ذلك يساير ماتقتضيه الظروف ، فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل مع مرور القرون ، ويحتفظ بكامل حيويته ومرونته ، ولا يجوز أن تهدم الخلافة هذا الصرح العظيم من العلوم الإسلامية ، أو أن تغفله أو أن تمسه بسوء ، فقد أوجد للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً ، شريعة تفوق في كثير من التفاصيل الشرائع الأوروبية » .

ولكن دولة الخلافة لم تصخ السمع لهذا النذير ، وغشيتها الدسائس الفكرية والسياسية والحربية من كل جانب ، فزحزحتها عن شريعة ربها ، وجرت وراءها كل الأقطار التابعة لها !!.

وقد قدمنا طرفاً مما يتعلق بضرب الشريعة قبل فترة الاحتلال[1]، ولكن الأخطر هو ماحدث بعد ذلك :

هدم الشريعة في ظل الاحتلال الكافر :

يشهد التاريخ أن الكفار الغزاة قد وقفوا لهذه الشريعة بالمرصاد ، وأعلنوها حرباً سافرة عليها بمجرد دخولهم بلداً من بلاد المسلمين ، وكانوا يسارعون بإحلال قوانينهم محل الشريعة في غفلة من

(١) انظر ص ٥٥ وما بعدها من هذا البحث .

المسلمين ، لأن الغزو الفكري كان قد مهد لهم الطريق ، واحتل سلفاً عقول وقلوب كثير من المثقفين ، وذوي الرأي من أهلها ، لذلك سهل على الكفار إحداث هذا الانقلاب الخطير وهم آمنون ، بل شجعهم هذا على التدخل لإعداد مناهج خاصة لعلماء الشريعة نفسها من طلاب مدارس القضاء الشرعي ، كما سنبين إن شاء الله[1] .

أمثلة صارخة :

ولنأخذ أمثلة محددة لما فعله الاحتلال الكافر بهذه الشريعة ، على امتداد الرقعة الإسلامية الواسعة ، وهى نماذج متكررة لما فعلته فرنسا في غرب العالم الإسلامي (كالشمال الإفريقي) ، وما فعلته هولاندا في شرق العالم الإسلامي ، أو جزر الهند الشرقية التي صارت (إندونيسيا) الآن :

الأول ــ في الهند :

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي : « إن أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو الهند ، وكانت هذه الشريعة هي قانون الدولة العام في الهند حتى بعد أن قام فيها الحكم الانجليزي ، فكانت يد السارق تقطع إلى سنة ١٧٩١ م ولكن الانجليز أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامي آناً بعد آن ، ويستبدلون به القوانين

(١) انظر ص ١٢٩ وما بعدها من هذا البحث .

الوضعية ، حتى تم إلغاؤه في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يبق منه تحت النفاذ إلا ماكان يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما ، على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية .

ثم على منوال الحكومة الانجليزية في الهند نسجت الأقطار التي كانت حكومات المسلمين أنفسهم قائمة فيها ، فصاغت جميع ولايات الهند المسلمة قوانينها العامة شيئاً فشيئاً حسب قالب القانون الجاري في الهند البريطانية .

وضيقت نطاق الشريعة إلى قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية »[1] .

المثال الثاني ــ في مصر :

فقد ذكرنا سابقاً كيف انتهت الأحوال بحاكم مصر « إسماعيل » إلى استجلاب القانون الفرنسي بنصه ليكون قانونا للمحاكم « المختلطة » ، وبقيت الشريعة محكّمة بين المسلمين ورعايا الحكومة المصرية إذا لم يكن طرف الخصومة أجنبياً[2] .

ولكن بعد سبع سنوات فقط من استجلاب القانون الفرنسي احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢م، ثم بعد عام واحد أقدم الانجليز على عمل خطير ، إذ قصروا القضاء الشرعي الإسلامي على ماسمي

---

(١) راجع رسالة « القانون الإسلامي وطرق تنفيذه » ص ١٠ ــ ١١ (هامش)

(٢) راجع ص ٥٢ وما بعدها من هذا البحث .

« بالأحوال الشخصية » ، أما بقية المعاملات الهامة ، من تجارية ومالية وزراعية كالإجارة والرهن والبيوع والمبادلات والشركات ونحوها ، فقد أحالوها إلى القانون الفرنسي ، المطبق في « **المحاكم المختلطة** » وجعلوه ــ مترجماً بنصه ــ قانونا لما أسموه « **بالمحاكم الأهلية** » ليتحاكم إليها أهل البلاد أنفسهم في سائر معاملاتهم .

الحكم بغير ماأنزل الله :

وبهذا الكيد السافر وقعت الأمة في انفصالية خطيرة ومدمرة بين ما سمي « **بالقضاء الشرعي** » وما سمي « **بالقضاء الأهلي** » ، وما يستلزمه كل منهما من تشريع مختلف المصادر والوجهة ، وكان من أخبث أساليب التهوين تسمية هذه المحاكم (بالأهلية) !

إن « « **الأهلي** » يقع في مقابلة « **الأجنبي** » فكأن هذه المحاكم وطنية أهلية ، لاأثر للأجنبي فيها ، وربما كان فعلاً معظم قضاتها من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، ويحكمون باسم حكومة مصر ، وفي غمرة الاسم والشكل والمظهر أنسى الناس نوع الشريعة التي فرضت عليهم ليتحاكموا إليها ، وأنها شريعة العدو ، الغازي الكافر ، وقد بلغت الغفلة مداها حين أدخل هذا الأمر على المسلمين تحت دعاوي : (الإصلاح التشريعي والقضائي) !

وكان عماد هذا الخداع والتضليل تلك الطلائع النكدة التي أشربت قلوبها ثقافة العدو وفكره ، والتي تعلمت في مدارسه ومعاهده ، وعلى رأسها « **مدرسة الحقوق** » التي أقيمت في عهد

إسماعيل على النمط الفرنسي ، مادة ولغة ونظاماً !!

ولو سارت القضية على طبيعتها لكان البدهي أن يقارن « **الأهلي** » « **بالشرعي**.» لأنهما هما الوجهان المتقابلان في واقع الحياة ، وحينئذ يفهم على الفور أن ماعدا « الشرعي » فهو مضاد للشرع ولو أخذ من الأسماء ما شاء ، فسيكون في كل حال كفراً بالإسلام ، وفسوقاً عن أمره ، ومروقاً عن شريعته ، وبذلك تستثار عزائم الأمة دائماً لحربه ، ورفضه ونقضه ، ولو بعد حين !

لكن المسألة سارت على مارسم لها من تضليل وتزوير فكري مروع ، فاستبدلت كلمة « الأجانب » بالكفار ، و « الأهلي » « بغير الشرعي » !

وسار الخداع ر ه القوة ، ويعينه أغرار المثقفين من أمتنا ، حتى تمّ **الاستبدال** واستقر ، وأصبح بمرور الأيام معروفاً مألوفاً ، ثم أكتسب « شرعية » من ثباته الواقعي الذي تمضي به الأيام فلا ينكر ولا يغير ، وإنما يمتد ويشتد ويزحف على مساحات جديدة من أمور الحياة متحيفاً على شريعة الإسلام العظيمة !

القانون الفرنسي في حماية الانجليز :

ولقد يبدو غريباً أن تسمح انجلترا بقيام التشريع والقضاء في مصر على أسس فرنسية واضحة ، مع مافي هذا من كسب ثقافي وفكري وحضاري لعدوتها اللدود ، التي كانت تشتبك معها في صراع شامل .

وتفسير الأمر واضح تماماً ، فإنه مادام الهدف واحداً وهو ضرب الإسلام ، فإن الجهود تتناسق ، والأعمال تتوافق ، والخلافات تتناسى أمام هذا العدو المشترك ، وهو نفس الهدف الذي جمع الكنيسة والدولة على مابينهما من صراع كما بينا ذلك سابقاً !!

ويضيف « أهل القانون » سبباً موضوعياً آخر ، يوضح لنا مدى ارتكاز هذا « **الاستبدال التشريعي** » على أسس الغزو الفكري الذي سبقه ومهد له الطريق في فترة ماقبل الاحتلال .

يقول الدكتور محمود مصطفى أستاذ القانون المصري : « كانت هناك أسباب متعددة لتفضيل القانون الفرنسي ، منها أن القانون الفرنسي كان أقرب من غيره إلى فهم دارسي القانون المصريين ، فقد كانت ــ ولا زالت ــ ثقافتهم القانونية فرنسية ، ثم إن القانون الفرنسي كان قد مر بتجربة تطبيقه عشرات السنين ، فصدرت عليه شروح وتطبيقات قضائية كثيرة ، مما يجعل مهمة تطبيقه في مصر ميسرة »[١] .

المثال الثالث ــ في تركيا :

وقد قدمنا كيف بدأت دولة الخلافة نفسها في إضاعة الشريعة الإسلامية ، واستبدال قوانين الكفار بأحكام الإسلام ، تحت وطأة الامتيازات الأجنبية ، وبتأثير الدول الأوروبية المباشر ، مستغلين ضعف الدولة وبعض هزائمها الحربية !

(١) كتاب « أصول قانون العقوبات في الدول العربية » ص ١١ .

دور الكفار في الردّة التركية :

ونضيف هنا بيان الدور الخطير ، الذي قام به الكفار المحتلون لتدمير كل مايتعلق بالإسلام وشريعته في تركيا ، مستعينين بالأجيال المفرّغة من عقيدتها ودينها ، والمشحونة بكل ضلالات الغزو الفكري وأباطيله ، وهذه قصة يرويها شاهد معاصر ، ومعاين لخلفيات الأحداث ، التي انتهت بردّة السلطة الحاكمة في تركيا عن الإسلام وقيمه وآدابه وشريعته جملة ، نتيجة لفساد دين رجال هذه السلطة ، الذين وجد منهم الاحتلال تجاوباً وقبولاً لتنفيذ ماأشربته قلوبهم من عداوة الإسلام ، وميل عن طريقه ، وذلك عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) واحتلال أرضها !

يقول مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني رحمه الله : « .. ولكن كمال بك أوخرى (أحد هيئة أركان حرب مصطفى كمال) الذي كان على اتصال مستمر بمصطفى كمال والذي لقيته مراراً في برلين عام ١٩٤٣ ، روى لي عن أوثق المصادر ماانتهت إليه المفاوضات ، فقال إن « كرزون » (وزير خارجية بريطانيا وقتئذ) وقف وقفة المتصلب ، وقال « لعصمت » (المندوب التركي في المفاوضات) : إننا لانستطيع أن ندعكم مستقلين ، لأنكم تكونون حينئذ « نواة » يتجمع حولها المسلمون مرة أخرى ، فتعود المسألة الشرقية التي عانينا منها كثيراً ..

وكان « عصمت » يعوذ للبحث والمشورة إلى أنقرة التي اتخذها مصطفى كمال مركزاً لحكومته ، ثم يرجع إلى لندن ، لاستئناف

المفاوضات ، وكانت تركيا حينئذ منهوكة القوى من الحروب الطويلة .. فرأى مصطفى كمال أن يخضع للضغط ويتعهد للإنجليز وحلفائهم بكل مايطمئنهم إلى أن استقلال تركيا لن يكون خطراً عليهم، ولن يسبب لهم في المستقبل مايقض مضاجعهم !

شروط كرزون الأربعة :

وعندئذ أملى الانجليز شروطهم المعروفة بشروط « كرزون » الأربعة وهي :

١ ــ أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .
٢ ــ أن تلغي الخلافة .
٣ ــ أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .
٤ ــ أن تختار تركيا لنفسها دستوراً مدنياً بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية والقائم على قواعدها .

وأضاف « كمال بك أوخرى » إلى ذلك قوله :

« إن تركيا اختارت دستور سويسرا المدني ، ونفذت شروط الإنجليز الأربعة التي أمليت عليها ، وكان مما تفرع على ذلك استعمال الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية ، ومنع إقامة الأذان باللغة العربية ، ومنع تعليم الدين والقرآن في المدارس ، وغير ذلك مما تحدده الشروط المذكورة ! »[1] .

---

(١) مذكرات مفتي فلسطين « الحلقة ١١ » المنشورة بمجلة آخر ساعة المصرية عدد ١٩٩٢ . بتاريخ ٢٢ من ذي القعدة ١٣٩٢هـ (٢٧/١٢/١٩٧٢) والحاج أمين توفى بعد ذلك سنة ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤ م رحمه الله تعالى !.

ودور الغزو الفكري :

وإننا على ثقة ويقين من أن الكفار المحتلين ماكانوا ليبلغوا مابلغوه ، لولا أن طاغية الترك وأضرابه كان لديهم الاستعداد الكامل لشراء دنياهم بدينهم وعقيدتهم ، التي رثّت في نفوسهم ، وتلاشت بفعل الغزو الفكري الطويل ، الذي غرس في قلوبهم الشبهات والشهوات والأباطيل ، ولقّنهم مناهج « وأيديولوجيات » تكفر بالله وبالمرسلين ، وتلحد في الوحي والدين ، حتى لقد كتب بعض أنصار طاغية الترك يقول : « إنا عزمنا على أن نأخذ كل ماعند الغربيين ، حتى الالتهابات التي في رئيهم ، والنجاسات التي في أمعائهم »[١] !

وقد نقل مثل هذا القول عن « عصمت إينونو » المفاوض التركي الذي تمت على يديه الشروط السابقة ، وكان هذا القول يمثل تماماً خطة زعيمهم طاغية الترك (مصطفى كمال !) وأفكاره واتجاهاته ، كما نفذها على مسرح الحياة التركية ، حين تم له الأمر[٢] .

---

(١) يقصد استحلال الخمر ، والخنزير ، وغيرها من المحرمات ، وهذا غاية العمى فى التقليد ، والعجيب أن زعماء الردة التركية أخذوا هذه الأشياء فقط ، ولم يأخذوا الجانب الجاد الصارم من الغرب !!

(٢) يراجع فى هذا كتب ومقالات شيخ الإسلام مصطفى صبرى رحمه الله مثل كتابه « موقف العقل والعلم والدين .. » وكتابه : « النكير على منكري النعمة » وفيهما تفصيلات وافية للآثار المروعة التي حققها الغزو الفكري في الأجيال التي تم على أيديها الانقلاب التركي والردة عن الإسلام !

قانون الكفار في ثياب وطنية :

وعن هذه الطرق الثلاثة (الهند ، مصر ، تركيا) وما شابهها تغلغل تشريع الكفار في أحشاء الأمم الإسلامية ، ثم لم تلبث هذه القوانين ــ بمرور الوقت ، وارتباط بمصالح الناس بها ــ أن اكتسبت صفة الثبات والاستقرار و « الشرعية » الواقعية ، فصارت تنقل لشعوب المسلمين بأسمائها الجديدة المزورة مثل : القانون الهندي ، والقانون المصري ، أو العراقي .. الخ وكان هذا ذروة التلبيس ، حيث لايفطن كثير من الناس إلى جذور هذه القوانين وأصولها الأجنبية ، المضادة لشريعة الله عز وجل !

وعلى سبيل المثال : ظل **السودان** يحكم بالشريعة الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن التاسع عشر الميلادي (في عهد دولة الفونج وسلطنة دارفور) وما إن استقرت أقدام الانجليز في السودان ، حتى أخذوا في وضع قوانين جديدة كقانون العقوبات رقم ١١ لسنة ١٨٩٩ ، وقد أخذ أساساً من قانون العقوبات الذي وضعه الإنجليز للهند سنة ١٨٦٠ م .

ويعلق أحد أساتذة القانون الجنائي على هذا فيقول :

« كانت ظروف الهند مشابهة لظروف السودان ، ليس فقط من حيث الاحتلال الانكليزي لها ، وإنما أيضاً من حيث تطبيق الشريعة الإسلامية ، فقد كانت كذلك مطبقة **في الهند** في المسائل الجنائية ، حتى حل محلها القانون الانجليزي في المدن الكبرى ، إلى أن صدر قانون العقوبات الهندي ، وقد استقبت أحكام هذا القانون من قانون

« لويزيانا » والتشريع الإنجليزي ، ومن القانون الفرنسي وكذلك صار القانون الهندي مصدراً لقوانين باكستان ، وسيلان وبورما والملايو وسنغافورة ، وعدن وحكومات الخليج الفارسي وغيرها »[1].

وفي العراق : استبدل الإنجليز فور الاحتلال بقانون الجزاء العثماني قانوناً جديداً أصدره قائد قوات الاحتلال (١٩١٨ م) باسم « قانون العقوبات البغدادي » .

وقد اعتمد شارعوه على قانون التحقيق الجنائي السوداني في وضع قانون المحاكمات الجزائية البغدادية ، أما قانون العقوبات ذاته فاستمد من قانون الجزاء العثماني (الذي بينا سابقاً انحرافه عن الشريعة بسبب كيد الدول الكافرة)[2] ، مضافاً إليه قانون العقوبات المصرى الذى وضع ١٩١٧ ولم يقدر له أن يصبح قانوناً رسمياً واشتهر باسم مشروع « بردونيوت » .

وفي تونس : صدر قانون العقوبات بعنوان « المجلة الجنائية » سنة ١٩١٣ م ونفذ عام ١٩١٤ م ، واقتبست نصوص هذه المجلة من قوانين فرنسا وتركيا ومصر وإيطاليا .

أما لبنان فاستمد قانونه من القانونين : الإيطالي والسويسري ، ثم من القانون اللبناني استمدت **سوريا والأردن**[3].

---

(١) راجع كتاب « أصول قانون العقوبات في الدول العربية » (هامش ص ١١) حيث ينقل عن كتاب : « القانون الجنائي ، مبادئه الأساسية ونظرياته العامة في التشريعين المصري والسوداني » ص ٢٦ للأستاذ محمد محيي الدين عوض .

(٢) راجع ص ٥٨ وما بعدها من هذا البحث .

(٣) أصول قانون العقوبات ص ١٣ ــ ١٤ .

ومن هذا يتضح دور الكفار المحتلين في تدمير الشريعة الإسلامية ، لافرق بين احتلال انجليزي أو فرنسي أو هولندي أو أي اسم آخر إلا في الوسائل والأشكال ومقتضيات الأحوال ، كاللجوء إلى الحيلة والتغيير الهادىء ، أو استخدام القوة في فرض شرائعه إذا قامت في وجهه مقاومة جادة .

ومن هذا الأخير مافعلته فرنسا حين أصدرت في مايو ١٩٣٠ م مجموعة القوانين التي أطلق عليها اسم : «**الظهير البربري**» والتي عزلوا بها مسلمي البربر عن التشريع الإسلامي حتى في مسائل الأحوال الشخصية ، وعن التثقيف الإسلامي والمدارس القرآنية !

وقد تحدث « سوردون » Sordon واضع هذا التشريع فقال : « إن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد البربرية ، فلأصحاب هذه الأسلحة الحق في اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في البلاد .. وإذا كانت العادات العرفية البربرية (أي التي كانت للبربر قبل إسلامهم) لم يكن لها مناص من الاضمحلال أمام مشروع مدون ، فلماذا لاتضمحل أمام شرعنا نحن الفرنسيين ؟ »[١] .

أهداف هذا الانقلاب التشريعي وآثاره :

إن الغاية الأساسية لدى كهنة الإلحاد العالمي هي غاية قديمة ورثوها عن آباء الكنينسة الحاقدين ، وتنحصر في هدم الإسلام ، وقد

(١) راجع مقال «من الإسلام إلى الإيمان» للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله المنشور في مجلة الأزهر ، مجلد ٢٢ — المحرم ١٣٧٧ هـ .

اشتبكت بها رغبة مادية عارمة ترمي إلى استنزاف ثروات الشعوب الإسلامية وكنوز أرضها ، فجاءت هي الأخرى باعثاً وحافزاً لهم ليشددوا التركيز على إزاحة الإسلام عن طريقهم ، باعتباره أكبر عائق لهم عن الوصول إلى أغراضهم ، لأنه ينفث في صدور أتباعه حمية مقدسة لاتعرف إلا إحدى الحسنيين ، وتؤجج في الضمير كل بواعث الجهاد والاستشهاد .

وكان هذا التغيير التشريعي واحداً من الوسائل الخطيرة التي استخدموها لتحقيق مآربهم الدنيئة ، وقد حققوا به أموراً على غاية النكر والبشاعة منها :

١ ـــ تغيير المجتمع تحت مظلة القانون الوافد :

ذلك لأنه من المقرر أن القانون ـــ من حيث هو ـــ يستهدف أحد أمرين :

إما الحفاظ ـــ بقوة السلطة ـــ على وضع قائم يراد له البقاء والاستمرار .

وإما العمل لتحقيق وضع غير موجود يراد له التمكن والانتشار .

وقد أقام الإسلام مجتمعاته على أسس أخلاقية سامية ، وتولت الشريعة الإسلامية ـــ بمعناها القانوني ـــ تحديد هذه الأخلاق ، وحمايتها بالحدود والتعزير فاستقرت في المجتمع قروناً عديدة ، وهي تشكل أنماط سلوكه الظاهرة وواجهته العلنية ، فلم تعرف مجتمعات

المسلمين دور البغاء المرخصة ، ولا حانات الخمور ، ولا بيوت المراهنات والقمار ، ولا وسائل إشاعة الفاحشة كالملاهي والمراقص .. إلخ .

وغاية ماوجد من ذلك أن يكون منكراً يتخفى ، ويلوذ بالجُدُر ، لأن الشريعة ــ باعتبارها قانون الأمة السائد ــ تحرمه وتعاقب عليه ، والعرف العام الذي رسَّخته الشريعة في المجتمع يستنكره ولا يسكت عليه .

فلما هبت على المسلمين أعاصير الاحتلال حملت معها كل الموبقات الأوروبية فأخذت تندلع وتشيع ، ثم جاء القانون الوافد حامياً لها ، بل لانغالي إذا قلنا إنه أنشأها وشجع عليها ، ويتضح ذلك في الأمرين التاليين :

الأول ــ دور القانون الوضعي في الانحلال الخلقي :

وهذا أمر على غاية العجب والخطورة ، لأن من شأن القانون ــ أي قانون ــ حماية المجتمع لا إفساده ، وضبط المعايير الاجتماعية لاحلّها وإطلاقها ، لكن القانون الوافد وضع ليحدث في المجتمع عكس المشروع والموضوع على طول الخط !

ويشرح الدكتور إبراهيم اللبان هذا الأمر فيقول بعد أن عد الشرور الوافدة : « ويمكن أن نقول إن من أهم العوامل في هذا المجال ، حلول القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية في ضبط حياة الأمم الإسلامية ، والسيطرة عليها ، وتوجيهها ، ثم ماطرأ على التربية الدينية من تغيير عميق .

أما الانقلاب الذي جاء به التشريع ، فلم يكن مجرد إحلال قانون محل قانون آخر ، بل إنه هز الأخلاق الإسلامية من أساسها ، ويرجع هذا إلى أن مبادىء القانون الوضعي تختلف عن أسس الشريعة الإسلامية اختلافاً أساسياً ، فالقانون الوضعي يرى مهمته مقصورة على تنظيم الصلات الاجتماعية ، أما السلوك الفردي فإنه لايتردد في التصريح بأنه يقع خارج نطاق سلطانه ، وأنه من أجل ذلك متروك لحرية الفرد ، ومن ثم فإنه لايعاقب على المنكرات والفواحش ، أما الشريعة الإسلامية فقد وضعت على أساس مبدأ مختلف ، فالسلوك الفردي كالسلوك الجماعي يقع تحت طائلة القانون الإسلامي ، وعلى هذا الأساس يقوم تشريع الحدود وضروب التعزيرات في شرب الخمر والقمار والزنا ونحوه .

وما كاد القانون الوضعي يحل في البلاد الإسلامية محل الشريعة ويعطل الحدود والتعزير ، حتى سنحت الفرصة لشذاذ الآفاق وطلاب الربح الحرام من الغربيين فأقبلوا من كل صوب ، وشرعوا ينشرون الحانات ودور الفساد في جميع أرجاء البلاد الإسلامية ، فكان هذا بداية انقلاب أخلاقي واسع المدى يقوم على أساس الانطلاق من قيود الأخلاق والدين .. وكانت الخطة العامة التي رسمها الاستعمار لبلوغ مآربه هي الاستعانة بالقانون الوضعي على إطلاق سراح الشهوات من قيود الشريعة»[1]

الثاني — دور القانون الوضعي في التخريب الاقتصادي :

(١) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها .

فمن المعلوم أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً جميع الفوائد الربوية في سائر المعاملات ، كالرهون ، والمضاربات (القراض) ، والقروض بنوعَيْها: الإنتاجي والاستهلاكي ... إلخ .

ولذلك ظلت المجتمعات الإسلامية بنجوة من لعنة الربا طوال تاريخها بسبب تعاليم هذه الشريعة الهادية ، فلما خالفوا عن أمرها حق فيهم نذير الله للمرابين : ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ البقرة : ٢٧٩ ، ومن ثَم اجتاحتهم النكبات ، وعضَّتهم الأزمات ، واجتالتهم الشياطين عن دينهم !

ولقد كان أول نقب في بناء الشريعة الإسلامية ، وأول ثغرة تسللت منها قوانين الكفار وشرائعهم ، هي ثغرة القروض الربوية التي توسع فيها بعض حكامهم لإرضاء نزواته وقد شرحنا طرفا من ذلك فيما مضى .

فلما دخل الاحتلال كان أول مااستهدفه هو إسباغ ثوب « المشروعية القانونية » على هذا اللون من المعاملات المحرمة ديناً ، والمستنكرة غاية الاستنكار عرفاً ، ولذلك عمد المحتلون إلى جميع ماحرمته الشريعة من الأرباح والفوائد ، فأباحوه عن طريق القانون الوضعي ، وقد أدى هذا الوضع — مع ضعف المسلمين — إلى تسرب معظم الثروات إلى أيدي الكفار من كل جنس ولون ، حتى وصلت قيمة الرهون والديون وفوائدها إلى حد استغراق ثمن جميع الأرض الزراعية وحاصلاتها لآماد طويلة في بلد عريق الخصوبة مثل القطر المصري !

« وهذا ما دعا الإنجليز في كل مفاوضاتهم إلى التمسك بمستشار لوزارة العدل (الحقانية وقتئذ) يسيطرون به على المجتمع المصري عن طريق التشريع ، وبمستشار لوزارة المالية ، يسيطرون به على القوة التي تجعل الكلام عملاً ، وتحيل الأفكار إلى بناء ماثل ، وكانت حجتهم التي يسترون بها أهدافهم الحقيقية في التمسك **بمستشارَي (العدل والمالية)** هي المحافظة على مصالح الأجانب »[1] .

٢ ــ هدم الإسلام في جانبه القانوني العملي :

وذلك عن طريق ربط مصالح الناس الحيوية بقانون آخر يستقطب جهودهم ، ويصرفهم عملياً عن الاهتمام بأحكام الشريعة الإسلامية ، فتموت هي الأخرى عملياً ولو بالتدريج ، على حين تنتقل الحياة والحركة والاهتمام والنشاط إلى شرائع الكفار ، ويتركز حولها !

وقد أخذ هذا الاتجاه طريقين نكدين حققا الغايات المستهدفة إلى أبعد الحدود :

الطريق الأول : عام ، يربط جمهور المتقاضين المسلمين أنفسهم بشرائع الكفار ، لأنها أصبحت قوانين الدولة صاحبة القوة والتنفيذ ، والتي لا سبيل إلى قضاء مصالحهم إلا من خلالها ، وخاصة في الخصومات ، ومن ثم اتجه الناس إلى محاكم هذه الشرائع وقضاتها ،

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ ٢ ص ٢٦٤ « الأصل والهامش » .

ومحاميها وخبرائها يسألونهم عن حكم القانون في كذا وكيت ، لاعن حكم الشريعة ، التي حصرت في زوايا الأحوال الشخصية ، وكان هذا من أخطر الانقلابات الفكرية والعملية التي أدخلت على المسلمين ، وزينت لهم في ثياب الاصلاح والتقدمية والمدنية .. إلخ .

والمستشرق الانجليزي « جب » يسجل هذه الظاهرة ، وهو يعدد تسرب مظاهر التأثير الغربي على المسلم العادي رغم أنفه فيقول :

« وهو يجد الرجوع إلى المحاكم الشرعية لايغنيه شيئاً في كثير من مصاعب حياته ومشاكلها ، بل يجد نفسه خاضعاً لقانون مدني قد لايعلم له مصدراً صحيحاً يستمد سلطانه منه ، ولكن لاشك أن هذا القانون لايستمد سلطانه من القرآن ولا من السنّة الصحيحة »[1] .

الطريق الثاني : خاص ، يربط فئة من خلاصة المثقفين المسلمين بدائرة نفوذه الفكري ربطاً محكماً ، وهم الطبقة القائمة على هذا القانون الوافد دراسة وتعليماً ، وأستاذية وقضاء ونيابة ومحاماة .. إلخ .

وكل هذا يقتضي استمرار إتقان لغات العدو ومصطلحاته القانونية ، ومتابعة شروح فقهائه ، وشد الرحال إلى عواصمه للتلقي عن أساتذته ، والتخصص القانوني في جامعاته ومعاهده ، واطراد الاقتباس والأخذ والرجوع إلى نظمه التشريعية وسوابقه القضائية ،

(١) كتاب : « وجهة الإسلام » ص ٢١٨ (الخاتمة) .

مع مايتبع ذلك عادة من فتنة المبهور واعتزاز المغلوب بالتتلمذ على أعلام القانون والتشريع في دول الحضارة الغالبة !

ولقد أدى هذا كله إلى تخريب مزدوج النتائج في الشخصية الإسلامية ، حيث اتجه الفكر والولاء والتلقي التشريعي إلى قبلة الغرب ، واستدبرت بالتالي قبلة الشرق العلمية جملة ، فكان الطالب وأساتذته المسلمون أنفسهم يذكرون « **سافيني** » و « **أوستن** » وأضرابهما من أساطين القانون الغربي بالفخر والاعتزاز ، في الوقت الذي يخجلون أو يجهلون كل مايتعلق بأئمة الفقه الإسلامي **كأبي حنيفة والشافعي** وأضرابهما ممن يكفي الواحد منهم لفخر الدهر كله ، وكانوا يشيرون بالبنان إلى مجموعات «**نابليون**» **القانونية** ، ولا يكادون يعلمون شيئاً عن المجموعات الفقهية الإسلامية « **كمدَوّنة** » **مالك** ، و « **الأمّ** » للشافعي ونحوهما .

فإذا لاحظنا أن هؤلاء القانونيين المحدثين كانوا قادة لأممهم في ميدان القضاء والتشريع ، وأن كثيراً منهم كان يتصدى لقيادة أمته في المجال السياسي ، ويصل إلى مناصب عالية في دوائر الحكم والتوجيه والتنفيذ ، إذا لاحظنا هذا علمنا كيف أدى هذا الغزو التشريعي في جانبه القانوني والفكري ، إلى أفدح النتائج وأبشع صور التخريب في كيان الأمة المسلمة وشريعتها !

التعليم الحقوقي :

ومن المناسب أن نذكر هنا شيئاً عن آثار التعليم الحقوقي بذاته ،

وقد كان من أهم دعائم القانون الوافد بمدارسه ومعاهده ثم كلياته الجامعية التي انتهت إلى « التعريب » الكامل في البلاد العربية ، ناهيك عن غيرها من البلاد التي لاتتكلم بلغة العرب ، وقد أصبحت هذه الكليات في جميع البلاد تبدو للناظر — بادي الرأي — جهداً وطنياً ذاتياً للغاية ، كأنه لايستمد أصوله ومقوماته كلها من وراء البحار ، وشرائع الكفار !

ولعل من أقدم المؤسسات الحقوقية في بلاد المسلمين مدرسة « الحقوق المصرية » التي أسسها الطاغية إسماعيل في فترة حكمه لمصر (١٨٦٣ — ١٨٧٩) لدراسة القانون على نمطه الأوروبي ، وكان المتفوقون والقادرون من خريجيها يستكملون دراساتهم القانونية في جامعات فرنسا ومعاهدها ويتتلمذون على أعلام القانون والتشريع فيها !

وكان إنشاء هذه المدرسة عملاً متسقاً تماماً مع قيام « المحاكم المختلطة » في مصر (١٨٧٥ م) بتشريعها الفرنسي ، وكذلك كانت هذه المدرسة أكبر الوسائل الفكرية والعملية لتدعيم هذا القانون الوافد ، والغريب على المسلمين ، ومدّه بكل أسباب البقاء والنماء ، لأنها أدت إلى قيام « **طبقة قانونية** » جديدة من المسلمين أنفسهم لتحل محل الأجانب في دوائر القضاء والتشريع ، حتى يصبح هذا الانقلاب الخطير ذا شكل وطني في ظاهره ، ويقوم على جهود ذاتية من داخل البلاد تكفل له الاستقرار والاستمرار ، حتى بعد رحيل الكفار !

وقد تطورت هذه المدرسة وأمثالها في بلاد المسلمين حتى

أصبحت «**كليات**» جامعية توسعوا في مناهجها ، وترجموا لها **أمهات كتب القانون الأجنبية** ، ثم جاء الطور الأخير الخطير وأصبح **التعليم والتدوين القانوني عربياً بحتاً** ، أو باللغات الوطنية في كل إقليم ، وكان هذا هو غاية التلبيس،لأن هذا كله يستمد جذوره وأصوله وفلسفته ونظرياته بل حتى سوابقه القضائية وشروحه الفقهية يستمدها من القوانين والمصادر الأجنبية عامة،والفرنسية منها بوجه خاص!

وفي ظل الاحتلال ــ وتحت حراسته ــ غدت هذه الكليات تقذف المجتمع الإسلامي كل عام بألوف من خريجيها ، وفتح أمامهم الطريق ليحتلوا مراكز أساسية في حياة أممهم ، كالقضاء والنيابة ، والمحاماة ولجان التشريع .. الخ .

وأصبحوا بذلك « طبقة » جديدة ، متميزة في قلب الأمة المسلمة ، تقوم حياتها ومعاشها وأفكارها وثقافتها وتعليمها التخصصي على أساس **غربي وافد ، يحادّ الشريعة** ويقوم على أنقاضها ، مهما تزيّي في طوره الأخير بأزياء وطنية ، أو قاده قوم « من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا » كما وصفهم النبي ﷺ في حديث الفتن (الذي رواه البخارى)[1] .

ولكن الحقيقة تبقى وراء ذلك كله ، ناطقة بالأصل الذي ينتسبون إليه ، والمورد الذين يستقون منه،والذي وصل بهم كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود : « إن الأمر قد وصل بالاستعمار أن صاغ خريجي كليات الحقوق بحيث لايفهمون بعد (الليسانس) كتاباً

(١)سبق تخريجه ص ١١

عربياً في المواد التشريعية، وليس الأمر بغريب .. **إن جدول التدريس في كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة في الأسبوع للقوانين الأوروبية ، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية !**

أترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا ، وانجلترا كانت تفعل أكثر من ذلك ؟! وهذه الكليات هي سر تخلفنا في التشريع »[1] .

وليس هذا التخلف الحالي ناتجاً عن قصور في الشريعة الإسلامية ، وإنما نشأ بسبب العزلة القاتلة التي ساقوا إليها الفقه الإسلامي ، والتي أدت إلى عزل أصحابه وانحصارهم في دوائر ضيقة ، ولولا أن هذا الفقه دِين لبادت آثاره لكثرة ما صُبّ عليه من التآمر والحقد والإهمال !

وقد وصل الأمر إلى نتائجه المقصودة ، فأصبح لهذه الطبقة القانونية الجديدة **انفصال تشريعي كامل** ، له مؤلفاته الخاصة ومناهجه ومدارسه وأساتذته ، ومشرعوه ومؤصلوه، وشرّاحه ومفسروه ، ومجتهدوه ومترجموه ، وأصبحت الأمة في النهاية تحكم بهذا « **الدين** » **الوضعي المبتدع** ، ويقوم عليها في التنفيذ والتطبيق : المسلم والكافر قضاء وتشريعاً وما بينهما !

---

(١) راجع مقال « الجنة تحت ظلال السيوف » المنشور في مجلة « آخر ساعة » المصرية بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٩٣ هـ « أكتوبر ١٩٧٣ » .
وراجع أيضاً كتاب « الحمد لله هذه حياتي » ص ٦٤ وما بعدها ، إلى ص ١٨٠ ، وقد اطلعت عليه أثناء إعدادي للطبعة الرابعة من كتابي هذا .

مشروعية الكفر :

وكما قدمنا أدى هذا الوضع الخطير إلى اكتساب القوانين الوافدة شرعية واقعية ، لأنها أصبحت شريعة الدولة ، التي تقوم — بقوتها — على تنفيذها ، وتنفق أموال المسلمين على إعداد القائمين بها ، ثم يقومون بدورهم — كما رأينا — بتدعيمها ، ومدها إلى كل آفاق الحياة ، واقعياً : بالتقنين والتطبيق ، وفكرياً : بتعريبها وهضمها وتسريبها إلى حياة المسلمين وكأنها فكر ذاتي !

تطوير الأزهر وشيوخه :

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل حاول الاحتلال محاولة فكرية أخرى ترمي إلى تطوير الشريعة الإسلامية نفسها تطويراً غربياً ، يقربها من مناهجه وشرائعه ، ويزيل الفجوة الهائلة بين النمط التشريعي الإسلامي ، وبين القوانين الوضعية على مابينهما من خلاف في الأصل والهدف والأسلوب .

وكانت الخطة تعتمد على تربية جيل جديد من رجال الشريعة الإسلامية على مناهج خاصة تنتهي به إلى هذا التقارب الفكري والعملي بين الأضداد !

وعلى سبيل المثال لهذا الكيد الذي لاينام ، جاء في تقرير اللورد كرومر — عميد الاحتلال في مصر — بصدد مشروع مدرسة القضاء الشرعي الذي وضعه الشيخ محمد عبده مع آخرين بتكليف من كرومر ، جاء فيه قوله :

« كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون « كالي » حاكم « البوسنة »[1] ، لتبادل الرأي في الموضوعات ذات الطابع المشترك . وقد استطعت أن أحصل ــ بفضل مساعدته ، ومساعدة خلفه ــ على معلومات وافية عن الكلية التي أنشأتها حكومة النمسا والمجر في « سارجيفو » لتخريج القضاة (يقصد قضاة الشرع المسلمين) وهي كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه ، وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة ، يرأسها المفتي الأكبر السابق بقصد وضع خطة مشابهة ، تلائم ظروف مصر وحاجاتها ، وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونية السابق ، ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة ، وهي الآن قيد البحث في وزارة العدل (الحقانية وقتئذ) وهذه النظم تزود الطالب **ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري:** (of aliberal chatacter) لاتحصر الطالب في الدراسات الدينية الخالصة[2] .

ولقد كان هذا العمل مقدمة لما يراود المحتلين من أماني في « **تطوير الأزهر** » كله ، وتغيير معاييره ومفاهيمه الإسلامية ليصبح شيوخه أكثر قبولاً للأوضاع الوافدة ، كالوطنية والقومية ، ولتنحل فيهم عقدة الرفض لكل ماهو « غير إسلامي » ، حتى يمكن التفاهم

---

(١) البوسنة : إقليم إسلامي يقع في البلقان « شرق أوروبا » ، وهو الآن جزء من « يوغوسلافيا » يعاني أهله العذاب من التسلط الإلحادي !

(٢) تقرير سنة ١٩٠٥ م فقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الانكليزي ، كما نجاء في كتاب « الاتجاهات الوطنية » .. جـ ١ ص ٣٣٥ وما بعدها .

مع أجيالهم الحديثة ، لتعايش « العلمانية » ـــ على الأقل ـــ إن لم يمكن احتواؤهم ونقل ولائهم التام إلى هذه « الجاهلية » الطاغية !

وليس هذا ظنا أو تخمينا ، وإنما هو ـــ فعلاً ـــ السياسة الثابتة للاحتلال ، تتابع عليها خلفاء « كرومر » ، حتى بعد الثورة المصرية سنة ١٩١٩م ، **كاللورد «لويْد»** (مندوب الاحتلال سنة ١٩٢٥ م وما بعدها) الذي يقول صراحة :

« إن التعليم الوطني ـــ عندما قدم الإنجليز إلى مصر ـــ كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أى إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير .

فلو أمكن تطوير الأزهر ـــ عن طريق حركة تنبعث من داخله هو ـــ لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير تصور أى تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة ، ولكن إذا بدا أن هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر ..

وعند ذلك فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفي .. »[1] .

(١) انظر « الاتجاهات الوطنية » جـ ٢ ص ٢٨٧ وما بعدها ، وهو ينقل هذا من كتاب « لويد » الذي ألفه سنة ١٩٣٣ م وعنوانه : Egypt Since Cromer أي : مصر منذ كرومر .

خلفاء الكفار يتممون الجناية :

وقد عجز الاحتلال الانجليزي عن تنفيذ كثير من مآربه في « الأزهر » خوفاً من الهياج الديني ، ولكن خلفاءهم من « الطبقة البديلة » قاموا بما عجز عنه الاحتلال ، تحت ستار الوطنية والإصلاح تارة ، وبسلاح البطش والاستبداد والإرهاب تارة أخرى !!

ونستطيع أن نذكر (**مثالين**) وصلت الفاجعة فيهما إلى ذروتها ، وكانا امتداداً لما أسسه الاحتلال ، وبذر بذوره الخبيثة ، حتى أخرجت ثمارها النكدة في عهد « الاستقلال المزعوم » :

(**المثال الأول**) : إلغاء القضاء الشرعي جملة ، وإدماج محاكمه في « دوائر » تابعة (للمحاكم الأهلية) التي قامت من أول يوم على القانون الوضعي !!

لقد كان البدهي — يومئذ — أن يعود (الحكم الوطني المزعوم) بالأمة إلى أصالتها وشريعتها ، فيدعم (المحاكم الشرعية) ، ويصلح منها ماأفسده الاحتلال والإهمال طوال سبعين سنة تقريباً !!

وفي الوقت نفسه يمحو — ولو بالتدريج — آثار الاحتلال ، التي فرضها على أمتنا بالقهر والإذلال !

لكن — مع الأسف — كان التابع أفجر من المتبوع ، فقلب المشروع ، وعكس الموضوع ، وأقدم على جريمة وأد (المحاكم

الشرعية) بأخسّ الوسائل والأساليب[1] !!

ثم تبع ذلك إلغاء «**تخصص القضاء الشرعي**» من كلية الشريعة ، حتى تموت المحاكم الشرعية موتاً أبدياً في المستقبل ، ثم أمعن الطاغية في فجوره ففرض على الأزهر من المناهج والدراسات ، مانلمس آثاره المفزعة الآن في كل مكان ..!!

---

(١) ألغيت (المحاكم الشرعية) المصرية بتاريخ ١٩٥٥/٩/٢١ م فى عهد الاستبداد العسكري الغشوم ، والذى جنى على الإسلام ودعاته من الجنايات ماعجز عن مثلها العدو الكاشح !!

وكانت الذريعة إلى إلغاء المحاكم الشرعية جريمة أخرى من جرائم الطاغية الأثيم ، وهي القضية التي اتُّهم فيها قاضيان شرعيان بالاتصال بالنساء المطلقات ، وحضور سهرات ماجنة للفجور ، وشرب الخمور .. إلخ

وحين قبض على الشيخين : (الفيل ، وسيف) ، أمر الطاغية بنشر ذلك فى صدر الصحف اليومية بأبرز الخطوط والعنوانات ، وحين صدر ضدهما حكم بالسجن المؤبد ألغى الطاغية المحاكم الشرعية جملة واحدة !!

وعلى فرض صحة هذا الاتهامات فما ذنب المحاكم الشرعية كلها ؟! لولا نيّة الجريمة التي بيّتها الطاغية وأعوانه فى تلفيق هذه القضية ؟!

وواضح وجه الخسّة والتزييف فى هذا ، حتى لايرتفع صوت من الأزهر أو غيره منددا بجريمة الطواغيت الفجرة !!

وإذا تذكرنا أن الشيخين المتهمين كانا كبيرى السن فى ذلك الوقت ، (لأن سن الإحالة إلى المعاش يومها كانت سن السبعين بالنسبة للأزهريين) علمنا مدى الجناية التى ارتكبها الطاغية وأعوانه ، وفضحوا بها ــ ظلماً وزوراً ــ الأزهر ، والعلماء ، والإسلام ، والمسلمين !!

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(**المثال الثاني**) : إدخال « **القانون الوضعي** » في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وتسميتها : «**كلية الشريعة والقانون** » بموجب القانون المريب المعروف « بقانون تطوير الأزهر » !!

إن هذه التسمية التي فرضت على الجامع الإسلامي العتيد هي تسمية في غاية الخبث ، وتجمع بين المتناقضات : (الشريعة ، والقانون) ، أو : (الشرع الإلهي ، والوضع البشري) !!

وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بينهما ، وحَلّ عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائماً أن تنبعث فيها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة ، وإعادتها إلى التفرد بالهيمنة على شئون الحياة الإسلامية .

إن دراسة القانون في كلية الشريعة ــ أو غيرها ــ يجب أن تكون بهدف واضح هو معرفته لاستخدامه في خدمة الشريعة ، والعمل لتنحيته عن مجال الهيمنة والتوجيه ، وضرْبه على بصر به ، ﴿**حتَّى لاتكونَ فِتْنةٌ ويكونَ الدِّينُ كلُّه لله**﴾[1] .

أما دراسته بقصد مزجه بالشريعة ، وتحكيمه بين الناس ، والرضا الضمني أو الفعلي عنه ، وقبول وظائف السدانة له ــ كما هو حادث الآن في الأزهر ــ فهذا ما يأباه الإسلام كل الإباء ، ويحرمه كل التحريم ، بل هذا هو عين ماخطط له العدو المحتل من قديم ،

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٩ .

تحقق على أيدي «الدعاة إلى أبواب جهنم»[1] من «الطبقة البديلة»[2] التي سهرت على تربيتها — طويلاً — دوائر الاحتلال والتبشير والاستشراق وآخرون من دونهم ؛ على مانبينه في إيجاز بإذن الله في النقطة التالية :



(١) هذا جزء من الحديث النبوى الذي رواه حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، وسبق تخريجه ص ١١ .

(٢) ينص قانون السلطة القضائية المصرية ، رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٥ م ، على تعيين خريجى كلية « الشريعة والقانون » في وظائف معاونين ووكلاء للنائب العام للأحوال الشخصية !!

وكان هذا استدراجاً خطيراً قصد به :

أولاً : تحويل ولاء حملة الشريعة إلى القانون الوضعي بالتدريج .

ثانياً : ضمان التسليم بمبدأ ضم الأحكام الشرعية إلى القانون ، مما يتيح للمحكومات فرصة تحويرها أو تغييرها باعتبارها جزءاً من القانون لا من الدين !.

الثالث : التربية الجديدة للطبقة البديلة [1]

إن أي خطة يراد لها النجاح ، ثم الاستمرار والاستقرار بعده ، لابد أن تسير في تسلسل محكم ، يبدأ من تحديد الهدف بدقة ، ثم وضع خطة فكرية واضحة لتحقيقه ، ثم إخراجها إلى حيز التنفيذ بالدعوة والإقناع .. ثم التركيز على بعض الناس حتى يصل اقتناعه إلى درجة عالية ، تجعله نموذجاً ومؤثراً في غيره ، ثم العمل على ربط هؤلاء برباط فكري ، أو عملي حركي ، بحيث يصيرون بداية « نمط جديد » في الحياة ، يشق طريقه ، ويستقطب الناس حوله .

وقد يقف هذا « النمط الجديد » عند حدود التأثير الفكري فقط ، أو يمضي في طريقه ، حتى يتبلور في جهاز تنفيذي ، يقوم على تطبيق خطته وحراستها ، ومدها إلى آفاق وأبعاد جديدة لاتبلغ بالفكر المجرد ..

الكفار يربون بدائلهم :

وهذا عين ماسلكه الكفار لتحطيم الإسلام في نفوس أتباعه ،

(١) قدمنا ذكر العنصر « الأول » ص ٧٣ ــ « والثاني » ص ٧٦ .

ونقلهم إلى طريق آخر « بتربية جديدة » تنبثق منها (**طبقة بديلة**) تعين هذا الاحتلال في وجوده ، وتتولى قضية التغيير بجواره ، ثم تحمل المهمة بعد رحيله وتسلمها للأجيال الوريثة ، في صيغة أخرى أخطر وأفحش ، حين تدخلها عليهم ، في ثياب « **الذاتية الوطنية** » وكأنها ليست حصاد مؤامرات خبيثة ، بُيّت أمرها بليل الأحقاد ، وسهر على رعايتها غلاة الماديين والمبشرين والمستشرقين وأضرابهم ممن أعماهم التعصب أو الأطماع .

لذلك كان عماد هذه « التربية الجديدة » كما يقول الدكتور إبراهيم اللبان : « إحلال مبدأي « اللادينية » ، و « العقلانية » محل الهداية الدينية في الفكر والقانون والتربية وسواها ..

فقد رأى القوم الحمية الدينية التي قابلتهم بها المقاومة ، وعرفوا أنها صادرة عن الروح الدينية ، وأيقنوا أن لاقرار لهم في البلاد التي استعمروها إلا إذا قبضوا على هذه الروح في الأجيال المقبلة من أهلها ، بل الواقع أن خطتهم كانت ترمي إلى أمرين أساسيين :

أحدهما : إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ، ليسهل عليهم التفاهم معه .

الثاني : أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ومن الثقافة الإسلامية والحمية الدينية .

وكان لابد لبلوغ هذا الهدف من النظر في الوضع القائم في جو

« التربية والتعليم » ، وتغييره تغييراً أساسياً »[1] .

وقد ذكرنا سابقاً مقدار تخوف الدارسين الأوروبيين من « العامل المجهول » الذي يجعل منشآتهم واهية الأساس في بلاد الإسلام ، والذي قد يقلب التيار رأساً على عقب.... إلخ[2] .

ولذلك كان التركيز على بناء هذه « الطبقة البديلة » قضية حياة أو موت بالنسبة للاحتلال .

ومن المعلوم أن التربية ليست هي فقط العلوم والمعارف أو التشريعات والقوانين ، وإنما هي مزيج مركب من عناصر شتى متداخلة ومتفاعلة ، وهي « **وسط** » تجري من خلالها عمليات التغيير ، و « **محاضن** » للعلاقات الإنسانية المختلفة ، حتى تفرخ بدفء الاهتمام والتقارب ، والاتصال المستمر ، وتؤثر في النهاية تأثيراً بالغاً في السلوك والفكر، من حيث يشعر الإنسان أو لايشعر .

وسائل وغايات :

ومن ثم فلم يكن أحد هذه العوامل هو المؤثر المتفرد أو المطلق في الانقلاب الذي حدث ، وإنما تجمعها وإلفها ، وتربية الأجيال على تقبلها فكرياً وعملياً ، وخاصة الذين كانت تئول إليهم قيادة أممهم ــ بكفاءتهم أو بتخطيط وتدبير العدو ــ كل هذا أعطى في النهاية لهذه التربية ــ ولطبقتها ــ قوة تدميرية هائلة ، لم يقف أمامها شيء !

---

(١) رسالة « التربية الدينيه » السابق ذكرها .

(٢) انظر ص ٨٨ وما بعدها من هذا البحث .

وهذه العناصر المؤثرة في «التربية الجديدة» ، منها ماجاء عفواً نتيجة للوضع الحضاري ، ومنها ماجاء عمداً ، وقصداً بتخطيط العدو ، وكيده اللئيم ، ويمكن إجمال ماتم ــ عفوه وعمده ــ على النحو التالي :

١ ــ التقليد :

فكما قدمنا ، فاجأت صحوة أوروبا الهائلة المسلمين وهم في غفلة من أمرهم ، وجاءهم الاحتلال ومن بين يديه ومن خلفه « مخاريق » حضارية ، أخاذة وفاتنة ، وزاد الطين بلة أن كان المسلمون في فترة « ركود حضاري » و « جمود اجتماعي » سببه الأول التفريط في تطبيق دينهم تطبيقاً صحيحاً ، ولذلك كانوا هم الطرف الضعيف في هذا الصدام ، وتبعاً لذلك كانت لديهم قابلية شديدة للتأثر ، وتشرب الأنماط الوافدة خاصة ذات البريق الاجتماعي ، ومن هنا بدأت دورة التقليد والمحاكاة ، ومضاهاة الكفار في كثير من عوائدهم وأحوالهم الفاسدة ، والانكباب على أشكال حياتهم وأساليبها المظهرية ، وقد دخل هذا كله على مشاعر الناس وأذواقهم وأخلاقهم مدخلاً ناعماً خادعاً ، باسم « التجديد » و « التقدمية » و « التهذيب والإصلاح » ، و « مسايرة العصر » ... إلخ .

وبداهة لم تكن عوائد الكفار شراً كلها ، ولكن قانون الاجتماع البشري ، وطبائع الأشياء تقضي بأن التقليد هنا لايكون إلا في قشور الأشياء ، وليس في لباب الحضارة ، وقد سجل المؤرخون ، وعلماء

الاجتماع هذه الظاهرة مراراً ، ومنهم **العلامة ابن خلدون** ، الذي طبقها على أهل زمانه ، وصح استنتاجه تماماً وفي ذلك يقول رحمه الله :

« إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ، ونحلته وسائر أحواله وعوائده .. حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها ، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء خطر كبير ، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم « الجلالقة » فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر الناظر بعين الحكمة ، أنه من علامات « الاستيلاء » والأمر لله »[1] ..

وما قاله رحمه الله ، هو ماجرى مرة أخرى هنا حذو النعل بالنعل ، ولنأخذ مثالاً عن « مصر » بعد فترة من الاحتلال ، وهو ينطبق تماماً على معظم بلاد المسلمين في ذلك الوقت ، يقول الدكتور محمد حسين في تصوير هذا :

« كان المترفون من الأغنياء ، يتهافتون على ماتخرج المصانع الأوروبية من وسائل الترف ، حتى غدت توافه الكماليات ، من ألزم الضروريات وأصبح قصارى مايبلغه أحدهم من التمدن ، أن يتقن تقليد الأوروبيين في استعمال أدوات المائدة الأوروبية،وأن يحسن حفظ أساليبهم في استعمال الملابس ، والتمييز بين ماينبغي أن يستعمل

---

(١) مقدمة « ابن خلدون » الفصل ٢٣ ص ١٢٢ طبعة كتاب الشعب « القاهرة » .

منها في مختلف المناسبات ، وأن يحسن استقبال النساء والتودد إليهن والتلطف في معاملتهن ، وأن يعود من سفرته السنوية إلى أوروبا ، حيث يقضي شهور الصيف ، ليتبجح في ندوات الفارغين بمغامراته ، ويدير لسانه بألوان من الرطانات ، ثم يرسل أبناءه وبناته إلى المعاهد الأجنبية ، مباهاة .. وإتماماً لما يريد أن يسبغ على نفسه وعلى بيته من جو أوروبي خالص ، يظن أنه هو المقياس الحق للمدنية وللرقي »[١] .

٢ ـ الاختلاط :

وهو وسيلة للتربية أخص من التقليد، وأكثر تركيزاً وأثراً في نقل العادات، واقتباس الأخلاق والسلوك .

وقد كثر اختلاط المسلمين بالكفار الأجانب من كل لون ، لكثرة الوافدين إلى بلادهم في ركاب الاحتلال ، وقد تعددت أيضا شعب هذا الاختلاط : في الأعمال ، والوظائف ، والبيوت ، والنوادي ، والتجارة .. إلخ ، وامتد إلى روابط الصداقة أو الحياة الأسرية حين التزوج بأجنبيات.، أو الزمالة في أسفار الدراسة ، أو الرحلات .. إلخ .

وكان من أخطر وأخبث الأجواء التي تم فيها هذا الاختلاط التربوي هو الجو المدرسي بمناهجه الخبيثة ، وبيئته الخاصة ، المكيفة تكييفاً مخططاً مرسوماً ، والتي كان يشرف عليها الرهبان والراهبات ، والمبشرون المحترفون ، ورؤساء الإرسااليات التبشيرية التي هيأوا فيها

---

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ص ١٨٤ .

لأطفال المسلمين مناخاً مزدوج التركيب : من فلسفة الحياة المسيحية ، وألوان العادات والأخلاق الأوروبية !

وكما قدمنا كان هؤلاء هم أبناء الأمراء والوزراء والأغنياء وأشباههم ممن تئول إليهم قيادة أممهم في شتى مجالات الحياة ، حتى ليندر أن تجد زعيماً ــ أو زعيمة ــ ممن تصدوا لقيادة التغيير الاجتماعي ــ المصادم للإسلام ــ إلا وهو خريج هذه المدارس الأجنبية ، أو متزوج بخريجة منها !!

وقد كان هذا الاختلاط في كثير من الأحيان مدعوماً بتخطيط ماكر ، ماهر ، ليؤدي دوره « التربوي » الخطير، وليحقق التغيير المطلوب ، ويكفل له الاستمرار والاستقرار بواسطة هذه الطبقة الجديدة الممتدة في قلب أمتها .

وعلى سبيل المثال نجد اللورد « **كرومر** » عميد الاحتلال الانجليزي في مصر ، يقترح في هذا الصدد : « أن يكون هناك نظام مدبر لعرض وجهات النظر ، التي تبدي عطفاً معقولاً على المصريين ، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية ــ لا عن طريق الحكومة ــ وكان يؤمل من وراء ذلك أن تجد أجيال المصريين المقبلة ، من الحكمة وسعة الأفق ــ حسب تعبيره ــ ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص ، مع الأوروبيين الذين يعطفون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين ، وضع مثل عليا جديدة تحل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين ، الذي لم يعد صالحاً لهذا الزمان حسب زعمه »[1] .

(١) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٢٤١ ، نقلاً عن كتاب « كرومر » : Modern Egypt .

إفساد المرأة المسلمة :

ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة ، بسبب هذا الاختلاط ، ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع ، تحاد الدين ، وتضاده ، أو تتنافر مع ذوقه وآدابه في أقل الأحوال !

وكان ماأصاب المرأة المسلمة من ذلك بالذات هو المقتل الذي أسرع بالمجتمع نحو هاوية سحيقة مالها من قرار !

فلم تكن الدعوة إلى ماأسموه « تحرير المرأة » ! إلا مؤامرة رهيبة ، على البيت المسلم لتدميره من الأساس ، وتحويل مساره إلى وجهة مضادة لم تحدث قط في تاريخ المسلمين ، حتى في أشد فترات ضعفهم أو فسادهم أو هزيمتهم، فكان من ذلك سفور المرأة المسلمة حتى العرى والتهتك ، ثم انحلالها الخلقي ، واندفاعها الفجائي إلى خارج البيت لتزاحم الرجال في كل مجال ، حتى مجالات الخلاعة والمجون والاستهتار !

لقد كانت المرأة في بلاد المسلمين ـــ بلاشك ـــ محتاجة إلى التعليم والثقافة والدراسة ، لكن حين تولى قضيتها المفسدون في الأرض ، قادوها إلى شر مهلك ، وجعلوها نكبة النكبات على أمتها ودينها ، وعلى مستقبل الأجيال التي تقوم بتربيتها ، وقد استغل المفسدون حاجة المرأة ، وغفلة الأمة ، وجهل قادتها ، أو فسوقهم عن أمر الله عز وجل ، وليس أدل على ذلك من قول المبشرة « **أنا مليجان** » وهى تتحدث عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة :

« في صفوف كلية البنات بالقاهرة ، بنات آباؤهن باشوات

وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من الفتيات المسلمات ، تحت النفوذ المسيحي ، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر من هذه المدرسة »[1] .

ولقد ذكرنا سابقاً تعهد الطاغية إسماعيل (حاكم مصر) لملوك أوروبا بأن يطلق (الحرية) للمرأة المسلمة[2] ، لأنهم كانوا يدركون تماماً خطورة هذا الأمر ، وأهميته البالغة في إحداث الانقلاب الحاسم في مسار الإسلام ، ثم كفالة امتداد آثار هذا الانقلاب لآماد بعيدة لايبلغونها عن غير هذا الطريق ، ولعل هذا هو عين مالحظه المبشر المتعصب **القس « زويمر »** في وصاياه للمبشرين إذ يقول مركزاً آماله على هذا الجانب الاجتماعي الخطير :

« تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها !

ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين ، وتحرير النساء »[3] .

٣ ــ بين العزل والتمكين :

وبمرور الوقت ، وتحت حراسة الاحتلال ، بدأ تيار

(١) انظر كتاب « أباطيل وأسمار » ــ المقالة الأخيرة بعنوان ــ « وأيضاً » ص ٢٩٠ منه .
(٢) انظر من هذا البحث ص ٦٣ .
(٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ٨٠ .

« التفرنج » ، و « التغريب » يقوى ويشتد ، وتتربى عليه أجيال وطلائع ، أخذ العدو الكافر يشد أزرها ، ويمكن لها في قلب أمتها ، ويفتح لها طريق القيادة والشهرة ، ويسلط عليها أضواء الدعاية لتصبح « النموذج » أو « المثال » الذي ينبغي تقليده ، واحتذاؤه ، والتشوق إلى مضاهاته !

ومع الأسف لم يستطع العالم الإسلامي — أو بعضه على الأقل — أن يضع لنفسه خطة رشيدة ، تؤدي إلى أخذ علوم الحضارة مع الاحتفاظ بمنهج الإسلام العظيم وطابعه في الحياة ، فتكون قوة إلى قوته ، وقد فعلت بعض الأمم الكافرة ماعجز عنه العالم الإسلامي ، (كاليابان) التي احتفظت بطابعها الذاتي ، في حين أخذت تزاحم الغرب في أعلى شعب العلوم والصناعات ، مع أنها لاتملك من وحي السماء مثل مانملك من منهاج مبين ، أو كتاب منير !

على أنه من المؤكد أيضاً أن خطة « التربية » التي وضعها أعداء الإسلام لم تكن تسمح بالمرور خلالها لأخذ النافع المفيد من الحضارة ، إلا بعد أن تحدث التغيير المطلوب في باطن الفرد وظاهره ، وتستقطبه ، أو تمتصه من طريق أمته الحقيقي ، بحيث يصبح في واقعه قوة جديدة تضاف إلى رصيد الاحتلال ، وتدعم وجوده واستمراره ، فكرياً وثقافياً واجتماعياً ، وإن بدا في الظاهر أن هذا الفرد من قوة التجديد في أمته وبلاده !

حقاً لقد تعلم آلاف من أبناء المسلمين العلوم والطب والهندسة على يد أوروبا ، وربما أفادوا أمتهم مادياً ، ولكنهم في الحقيقة كانوا

نواة التدمير لطابع أمتهم الإسلامي ، وكانوا المسئولين عن تحويل مسارها ، وسقوطها في براثن الغزو الفكري ، سقوطاً لامثيل له بين الأمم ، لأن حصونها غزيت من داخلها ، ناهيك عمن تعلموا الفلسفة والآداب ، والفنون الماجنة ، والقانون ، وأمثالها من أسلحة الغزو الفكري المباشرة !

وقد ظهرت آثار الكارثة حين تولى هذا التيار قيادة أمته في شتى مجالات الحياة ، وتحت شعارات خادعة من « الاصلاح الاجتماعي » و « التقدم » و « الحضارة » .. إلخ .

ولقد صحب ذلك خطة ضاربة لعزل دعاة « الطابع الإسلامي » عن الحياة وحصرهم في أضيق نطاق وتصفيتهم وإبعادهم عن كل مجالات التأثير والتوجيه الحيوية !!

ونعود إلى ذكر أمثلة واقعية ، مما جرى في « مصر » أيضاً ، وهي « نماذج » لما حدث في بقية العالم الإسلامي ، المنكوب بحكم الكفار والمخدوعين بحضارته الزائفة !!

« فقد أدى نظام التوظف منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال الانكليزي خاصة إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية ، من ميدان الإصلاح ، وتخلفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد، وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية ، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ماتعلموه »[1] .

---

(١) راجع « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » جـ ١ ص ٢٢٥ .

« وأصرح من ذلك ماقرره « كرومر » ـــ واضع أسس السياسة التي جرى عليها الاحتلال الانكليزي في مصر ـــ من أن الإسلام بطبيعة تعاليمه ، عدو للحضارة الأوروبية ، وأن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوروبيين ، لايقوى على حكم مصر في هذه الأيام ، لذلك سيكون المستقبل الوزاري للمصريين المتربين تربية أوروبية »[1] .

وتنفيذاً لهذه الخطة أخذ الاحتلال يفتح الطريق أمام أعوانه ، « الذين نشأهم في أحضانه صغاراً حتى إذا رضي عنهم ، ورضوا عنه استخلفهم على قومهم ينظرون بعينه ، ويفكرون بعقله ، وأصبحت مناصب الدولة المهمة في قبضة هذه العصبة من المتفرنجين ، ومن المتزوجين بالأجنبيات والانجليزيات منهن خاصة ، يوجهون الأمور ، ويخططون السياسات ـــ والسياسة التعليمية خاصة ـــ على مايرجو الانجليز ، وعلى مايحبون »[2] .

وهذه النتيجة المروعة هي عين ماسجله المستشرق الانجليزي « جب » ، واستنبط آثارها المزعجة من وقائع الأحوال المشاهدة في أوائل هذا القرن ، حيث كانت خطة قومه تطبق وتنفذ على أوسع نطاق ، يقول :

« ربما كانت أسلم نتيجة نقررها هي أن نقول : إن هناك طبقتين رئيسيتين : طبقة عليا تشمل أفرادا من القادة ولكنها تشمل أيضاً أكبر

---

(١) السابق جـ ٢ ص ٢٥٤ وهو فى الموضعين ينقل عن كتاب « كرومر » Modern Egypt وتقريره عن سنة ١٩٠٦ .

(٢) المرجع السابق (الاتجاهات الوطنية) جـ ٢ ص ٢٦٤ .

مراكز الفكر الإسلامي تأثيراً ، وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية ظهوراً قوياً .

وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأي الإسلامي ... وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقاً إلى حدٍّ ما ، وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب — إلا في جزيرة العرب — وما دام **الزعماء هم الذين يعتد بهم — ولاسيما زعماء الجيل الناشىء — استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذ نهائياً بوجهة نظر لاسلطان للدين عليها** ، إلا إذا طرأ عامل جديد وغيّر اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى .. »[1] .

٤ — التحول الذاتي :

على أن هناك هدفاً خطيراً تغياه أعداء الإسلام في تربية هذه « الطبقة البديلة »،وربما كان يتفوق على كل ماعداه من مؤثرات الاحتلال ، بل تبلغ خطورته أنه الآن هو أساس « **الاستمرار** » الذي تمضي على خطه مجتمعات المسلمين ، وكأن « **عهد الاستقلال** » ليس إلا امتداداً « **للاحتلال** » ، وإن اختلفت — فقط — الصور والأشكال !

وهذا الهدف هو غرس مُثُل الحضارة الغربية وطرائقها وفلسفة حياتها في نفوس هذه الطبقة ، حتى تتشربها قلوبهم وتختلط بكيانهم ،

(١) راجع خاتمة كتاب : « وجهة الإسلام » ص ٢١٩ وما بعدها .

ويتمثلونها خلقياً وفكرياً ، على المستوى الفردي والاجتماعي ، بحيث يصبح « **المركّب الأوروبي** » هو مزاج هذه الطبقة النفسي والفكري ، وميزان تصرفاتها ومعيارها الذي تقيس به الأمور ، أي أنه يتحول إلى « **مركَّب ذاتي** » تصدر عنه الأعمال تلقائياً ، وتطرد معه الحياة على نمط « الحضارة الأم » بغير إحساس بغربة ، أو نقل أو صفة وافدة !

ومن المعلوم أن بين الإسلام وكثير من الأنماط الأوروبية تبايناً عميقاً لاسبيل معه إلى لقاء ، وخاصة في أصول الفكر ، والاعتقاد ، وضروب السلوك والأخلاق ، وطرائق المعاملات ، وهو نفس الفارق بين حياة تنبعث من الإيمان ، وحياة تنبثق من الإلحاد ، ومع مايتبع ذلك في كل نواحي الحياة من سلوك ملتزم بمنهاج الله رب العالمين ، وسلوك متمرد على دينه الحق ، يدعو إلى التحرر من كل التزام، إلا ماأشربه من هواه وأضاليل قادته !!

ولذلك كانت هذه الطبقة البديلة هي الوسيلة المتفردة لحسم المعركة مع منهاج الإسلام ، وكلما أمعنت في « هضم » الحضارة الغربية وتحويلها إلى خلاياها ــ وخلايا أمتها ــ قَرّب ذلك أمد الصراع ، وقطع الطريق على مستقبل البعث الإسلامي المخوف !

ومن ثم كان التركيز ضارياً وعنيفاً في سبيل تحقيق هذا الأمر ، لتقوم الطبقة التي تأخذ « **نهائياً بوجهة نظر لاسلطان للدين عليها** » ، **كما قال المستشرق** « **جب** » ، وحينئذ يمكن « الجلاء » عن أرضها ، وتسليمها زمام السلطة فيها ، لأنها امتداد لفكر المحتل ، وتحقيق مجسد

لأهدافه الخبيثة ، وحتى إذا وقع بينه وبينها خلاف اليوم أو غداً فهو عداء « مصالح » يخضع للمساومة والتبادل ، وليس كما كان من قبل عداء « عقائد » وصدام « أفكار » و « مناهج » ، لاسبيل إلى حله إلا بما علموا وذاقوا عبر تاريخ الإسلام الطويل .

ومع الأسف أفلح أعداؤنا في تربية هذه « الطبقة » ، التي لوت ـــ بدورها ـــ زمام أمتها ، وأحلتها دار البوار ، ولنستمع هنا إلى شهادة « جب » على قومه ، وما توصلوا إليه من نتائج بواسطة الطبقة البديلة ، يقول في بحث طويل : « **أظهر علامة تميز العالم الإسلامي في هذه العقود الأولى من القرن العشرين ، ليست هي صيرورته إلى الأخذ بمنازع الغرب ، ولكن رغبته في ذلك** .. » .

ثم يعدّد أطوار ماأسماه « **بالاستغراب** » ، أي محاولة حمل العالم الإسلامي على الحضارة الغربية ، والتي يختمها بقوله :

« وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح الذي نسبر به غور التأثير الذي أحدثته الثقافة الغربية في العالم الإسلامي يجب أن ننفذ إلى لباب الأمور ، وأن ننفذ أولاً إلى الحركات التي تقوم على تشرب الأفكار الغربية تشرباً يبعث على الابتكار ، بعد استعداد داخلي قوي ، وكل ماعدا هذا فهو سطحي .

ومهما شق الأمر ، فلابد من بذل الجهد لتبين تلك العناصر المنقولة ، التي تراكمت في العالم الإسلامي ، والتي كثيراً ماتكون قشوراً زائفة .

والتعليم هو أكبر العوامل التي تعمل على « الاستغراب »

والحق أنه العامل الوحيد — إن فهمنا من كلمة تعليم كل ماتدل عليه (المدرسي ، والفني والجامعي ، والأخذ بأساليب الغرب في الإدارة والسياسة ، وتربية الرأي العام بالصحافة وخاصة التي تتميز بنزعة علمانية غالبة كما نرى)[1] .

وبعد :

فإذا أخذنا بأيدينا هذا المقياس: (**التربية الجديدة ، والطبقة البديلة**) فسوف لايشكل علينا تفسير شيء مما يموج به العالم الإسلامي اليوم من تناقضات وتخبطات ، حتى بعد أن استرد سلطانه السياسي على أرضه ، ودخل في مرحلة هذا **الوهم الكبير** التي أسموها « عهد الاستقلال » !

كذلك يعطينا هذا المقياس المدخل الصحيح لتشخيص الداء والدواء ، إذا صحت النيات لبناء العالم الإسلامي من جديد ، والعودة به إلى طريقه الأصيل ، ورسالته المتفردة ، على مانبينه في إيجاز إن شاء الله تعالى ، في هذه الصفحات الختامية :



(١) انظر الموضوع بتمامه في كتابه « وجهة الإسلام » من ص ٢٠٨ — ٢١٧ .

النتائج

« عهد الاستقلال » ... إلى أين ؟!

اتضح مما سبق أن « الاحتلال العسكري » لبلاد المسلمين كان سرطاناً مركبّاً امتد في كل اتجاه ، وتفرعت عنه أو تأكدت في ظله أنواع منه مثل :

١ ــ « الاحتلال السياسي » وذلك باستيلاء الكفار على مقاليد الحكم والإدارة في الأقاليم الإسلامية ، ومباشرة العمل فيها بأنفسهم أو بواسطة أعوانهم .

٢ ــ « الاحتلال الاقتصادي» الذي سيطروا به على منابع الثروات ، وجعلوا به بلاد المسلمين أسواقاً لتصريف بضائعهم ، أو مصدراً للمواد الخام اللازمة لبناء صناعاتهم .

٣ ــ « الاحتلال الفكري والاجتماعي » الذي فصلنا ذكره سابقاً ابتداء من الانحلال الخلقي ، والإبدال التشريعي ، وانتهاء بقيام الطبقة البديلة ، على أساس التربية الوافدة ، والتغيير الفكري الشامل !

الاستقلال الموهوم :

وقد أذن الله تعالى بانتهاء الاحتلال العسكري عن غالب ديار المسلمين ، وبذلك استردوا حريتهم السياسية والاقتصادية إلى حد كبير ، غير أنهم اعتبروا ذلك غاية الغايات في التحرير و « الاستقلال » .

وكان هذا الشعار وهماً كبيراً لُهِّيت به جماهير المسلمين فقنعت بالأدنى من الأهداف ، دون الأجلّ الأكبر من مهمتها ورسالتها في هذه الحياة .

لقد كان البدهي المأمول أن يعي المسلمون السبب الأصلي فيما منوا به من كوارث الاحتلال ، وما خلفه فيهم من انهيار وانحلال ، فيكون يوم « الجلاء » في كل إقليم هو بداية العمل الجاد للاستقلال الحقيقي ، الذي يتمثل في العودة الشاملة إلى منهاج ربهم .

بيد أن الأمور سارت على غير هذا الأمل البدهي ، حتى لتبدو لنا هذه المرحلة ، وكأنها مرحلة « **الاستمرار** » على موروثات عهد « الاحتلال » ، بل هي أحياناً تزيد عليها ، لأنها تتم على أيدي المسلمين أنفسهم ، حتى ليصح أن توصف بمرحلة « الاستبدال » أو « الاستحلال » !

لسنا بداهة نقول بتفضيل « الاحتلال » على « الاستقلال » ولكننا ـــ بعد مراجعة شاملة ومستأنية لأحوال المسلمين ـــ نقول جادين : أين هو الاستقلال ؟!

إن أمتنا لم تزل محتلة القلاع ، مستباحة الحصون ، مشدودة بأغلظ قيود التبعية ، في أخطر وأجل ماينبغي أن تستقل به أمة ، وتتميز به عما عداها ، أعني في الفكر والتشريع ، والأخلاق والسلوك ، والتربية والاتجاه ، والغايات والأهداف وغيرها من حصاد هذا الغزو الفكري ، وثمرات الانقلاب الاجتماعي التي تمت على أيدي الكفار ، ومن خَلَفهم من « الطبقة البديلة » .

استقلالنا دين :

وإذا كانت الأمم تحرص على استقلالها الفكري ، والاجتماعي ، بدافع من العزة القومية أو الكرامة الوطنية ، أو غيرهما من دعاوى الجاهلية ، فإن المسألة عندنا تختلف تماماً ، لأن استقلالنا في هذه الأمور هو قضية عقيدة مقدسة ودين ، ومسألة وجود ومصير ، ومسئولية رسالة ودعوة ، وضرورة بعث وإنقاذ لأنفسنا وللعالمين ، ثم هي مهمة قيادة وهداية ، وتمكين لخط الوحي الإلهي المشرق ، وتمييز له عن المناهج والنماذج البشرية التي سيطرت على الأرض ، وملأتها ضلالاً ، وإلحاداً ، وعناداً !

وهذا كله يأبى علينا التبعية كل الإباء ، بل إن التبعية هنا تصبح خيانة لرسالتنا ، وجناية على أمتنا ، وشروداً بالقافلة البشرية عن طريق ربها الواحد القهار .

ويزيد الأمر سوءاً الإصرار على المضيّ والاستمرار في خط الكفار ، وخاصة بعد أن تحررت الإرادة السياسية ، وسقطت معاذير

الإكراه بجلاء الجيوش العسكرية ، حتى أصبح الأمر — كما قلنا — « استبدالاً » بالاختيار ، يصل إلى حد الاستحسان والاستحلال !.

طبيعة المعركة :

ومن ثم فإن على « **دعاة الإسلام** » ، وأصحاب النمط الإسلامي للحياة ، أن يكونوا على تمام اليقظة ، والانتباه لطبيعة المرحلة التي يعيشون فيها ، وطبيعة المعركة التي يخوضونها ، وأنها معركة أشد شراسة وفداحة من معارك الكفاح والسلاح التي خاضتها أممهم لتحصل على استقلالها الجزئي المحدود .

ومن هنا أيضاً وجب ألا يضيعوا أوقاتهم في معارك جانبية ، أو في محاولات الترقيع ، وإنما يجب أن يلفتوا نظر أمتهم — دائماً — إلى واقعها الأليم ، ومصادمته للإسلام ، وأن هذا أثر مباشر من آثار الكفار ، حاكوا خيوطه ، ورسموا خطوطه ، عبر قرون من الحقد والتآمر والكيد للإسلام !!

ولا يجدي غير هذا السبيل في مواصلة استنفار عزائم أمتنا ، حتى تتخلص — باسم الإسلام وتحت رايته — من أخطر وأخبث ماٌمنيت به من ألوان الغزو والاحتلال ، والذي يكفي في التدليل على فظاعته ، أنه ترك المسلمين كالمريض الذي فقد مناعته ، وهزلت مقاومته ، واختلط عليه أمره ، فهو يستشفى بالداء ، ويفرّ من الدواء ، ويتعرض كل يوم لجديد من الوباء .

فتراخي الأمر حتى أصبحت هملا يطمع فيها من يراها

بدائل جديدة :

وعلى دعاة الإسلام أن يتنبهوا جيداً إلى أن أعداءهم وحلفاءهم من « الطبقة البديلة » قد أفلحوا في غرس بواعث وأهداف جديدة في نفوس المسلمين ، بديلاً عن الإسلام ، كالنعرات القومية والوطنية ، وقضايا الاقتصاد والإنتاج، والاستهلاك والتوزيع ، ودعاوي الاشتراكية ، أو غيرها من الدعوات المذهبية التي روّجوا لها ، وبنوا حولها زعامات وقيادات ، لتستقطب الناس عن راية الإسلام بعدما تبين شمول منهاجه ، وسمو شريعته ، وتفوقه في وضع الحلول لمعضلات المجتمعات ومشكلات الحياة .

موت الإحساس بآثار الكفار :

على أن أخطر مايجب التنبيه إليه هو موت الشعور — في الأجيال الوريثة — بمصادر وأصول التربية ، التي يدرجون عليها في كل نواحي الحياة ، لأن صفة « **الذاتية** » في التحول والتغيير ، أصبحت — في ظل الاستقلال الجزئي ، ذاتية « **اندماج وتفاعل** » اختفت فيها أصولها الوافدة، وبرزت فيها معالم وطنية خادعة ، ومن ثم غدت الأجيال المتعاقبة تدرج عليها في غفلة ، وموات ، لاتستشعر حرجاً ولا تبدي سخطاً ، ولا تنكر ولا تعرف إلا ماربيت عليه من قيم وافدة ومثل غريبة ، ومع علمها في كثير من الأحيان بمصادمتها لدينها وكتاب ربها !

ولنأخذ من ذلك — على سبيل المثال — الطبقات المتعاقبة من

أصحاب « القانون الوضعي » ، وملايين المسلمات من الكاسيات العاريات ، ومحترفات اللهو والمجانة ، والألوف المؤلفة الذين يعبون عباً من فكر الحضارة المادية الملحدة ، ويستقون من مستنقعات ثقافتها ، وتصوراتها وفلسفاتها الجاهلية ، ثم يقذفون به أمتهم في كل ميدان ، كالصحافة والتعليم و « الفنون » المختلفة : من التمثيل والغناء ، والشعر والقصة ، والأدب والفلسفة .. إلخ .

والعجب ــ كل العجب ــ أن يمضي هذا كله الآن بلا حرج ، بل ويقبل عليه الناس في شوق وارتياح ، ويظل يربو حتى يغلب على كل ماعداه ، ويغمر المجتمعات من أقطارها إذ تمده روافد لاتنضب ، أولها في ديار الكفار، وآخرها في قلوب إخوانهم من « الطبقات البديلة » ممن بدّلوا دينهم ، وصاروا شيعاً بين ركام المناهج والنماذج والشرائع والاتجاهات والمذاهب ، وإن كانوا في النهاية يمثلون تياراً واحداً ، تشابهت قلوبهم في حرب الإسلام ، والانصراف عن قيمه وتوجيهاته ، واختيار أي صيغة أخرى تخالفه وتضاده !

الجهاد سبيلنا :

وما كان هذا كله ليستمر بعد رحيل الكفار عن ديار الإسلام ، لولا أن هيّأوا له اطراد النمو والتأثير ، وانتشار السلطان والأنصار ، حتى ليستشعر دعاة الإسلام بينهم القلة والغربة ، وهذا عكس للموضوع وقلب للمشروع يحتاج إلى جهاد ــ أي جهاد ــ حتى يعتدل الميزان وتحسم القضية ــ بإذن الله ــ لصالح الإسلام ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ يوسف : ٢١ .

خــاتمة

الداء والدواء :

نتبه في ختام هذا العرض والتحليل ، إلى أننا لانرمي إلى جانبهما السلبي ، الذي يستهدف محاكمة المنحرفين وإدانتهم ، والتنديد بما جلبوه على أمتهم ودينهم في شتى مجالات الحياة ، **وإنما هدفنا الأصيل هو : تشخيص الداء ومعرفة أسبابه ، ومضاعفاته ، حتى يمكن تطبيب هذه الأمة على بصيرة** ، ووصف الدواء الناجع لها ، من هدى القرآن ،وشرائع الإسلام ، وإرث النبوة الخاتمة .

مقترحات :

لذلك أختم هذا البحث ببعض مقترحات ، رجاء أن يجد فيها مؤتمركم الموقر مايصلح لأن يضمنها توصياته الختامية ، ويدعو المسلمين إلى وضعها موضع التنفيذ الواسع الناجز ، الذي يردّ عن أمتنا كيد قرون ، ويستنقذها من أخطر وأخبث مامنيت به عبر تاريخها الطويل :

١ ــ دعوة أصحاب الاتجاه الإسلامي ــ على اختلاف

مواقعهم ـــ إلى العمل الجاد لإبراز « **خطة بديلة** » في مجال التربية والتعليم ، والفكر والثقافة ، يمكن بواسطتها إعادة صياغة الفرد المسلم ، والبيت الإسلامي ، والأمة المسلمة ، وفق معايير الإسلام .

وأساس هذه الخطة : أخذ الإسلام مأخذاً شمولياً ، باعتباره منهاجاً كلياً كاملاً للحياة ، أي من حيث هو عقيدة وشريعة ونظام ، شرفنا الله تعالى به ، وكلفنا حمل أمانته ، وألزمنا تطبيقه ، ودعوة العالمين إليه ، وجعله قضية وجودنا ومهمة حياتنا ، ويجمعنا للحساب والجزاء على أساسه .

وروح هذه الخطة : تربية الأجيال على الاعتزاز المطلق بدينها ، واستشعار عظمته وسموه ، وسبقه وتفرده عما لدى البشر من حطام الفكر ، وركام المذاهب والشرائع كما قال ربنا بحق :

﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ الإسراء : ٩

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ المائدة : ٣ .

٢ ـــ ضرورة إبراز مادة علمية دراسية جديدة باسم « الغزو الفكري » أو ماشاكله من الأسماء ، تشرح دور هذا الغزو وتاريخه ، وظروفه ومدى تأثيره في حياة المسلمين المعاصرة : فكرياً وقانونياً ، وتعليمياً .. إلخ . وتقرر هذه المادة على مراحل التعليم المختلفة ـــ كل بقدر مايناسبه ـــ ابتداء من السنة السادسة الابتدائية ، وانتهاء بآخر مراحل التعليم الجامعي .

ونقترح في هذا الصدد إسناد تدريسها إلى مدرسي المواد الدينية في المدارس ، وإلى العناصر الموثوق في اتجاهها الإسلامي من أساتذة الكليات والمعاهد العليا .

وتدريس هذه المادة ضرورة دينية وقومية ، حتى تضع الأجيال الجديدة يدها على مصادر الداء الذي يغشى حياتها ، وتتربى في نفوسها النفرة من كل مايخالف دينها من العادات والتقاليد والأفكار المستجلبة ، وخاصة إذا أبرز لهذه الأجيال طرق التآمر والغدر والاحتيال التي اتبعت في جلب هذا الداء لأمتها ، وما صاحبها من استغلال أصعب الظروف الإنسانية واستعمال أخس الوسائل (كما بيَّنا في هذا البحث طرفاً منه) !

٣ ــ دعوة الكتّاب والأدباء والقصصيين الإسلاميين ، وأمثالهم إلى التركيز على إبراز هذا الجانب ، بمختلف الفنون حتى يحدث تياراً مضاداً لآثار الغزو الفكري ، كاشفاً دوره التخريبي المدمر ، وخاصة في جنايته على المرأة المسلمة التي تربي الأجيال الآن ــ في غفلة ــ على وفق ماربيت عليه هي من فساد القيم والمعايير !!

٤ ــ وندعو المؤسسات الإسلامية كالجامعات والهيئات إلى تنظيم هذا ، وإخراجه إلى حيز الوجود ، بتوجيه الرسائل العلمية إلى دراسته ، وبتنظيم المسابقات والجوائز لأحسن كتاب أو قصة أو دراسة في موضوعات مختارة ، ترمي إلى عمل متكامل ، يحس بأثره الفرد والمجتمع ، وينشر على أوسع نطاق حتى يتكافأ ــ على الأقل ــ مع درجة شيوع الباطل واستعلانه .

٥ ــ دعوة المؤسسات الإسلامية ــ في كل مكان ــ إلى الانتباه البالغ لآثار الغزو الفكري ، وموجاته المستحدثة ، وأن تكون هذه المؤسسات نموذجاً يحتذى في محاربتها ، لا في مزاولتها .

وعلى سبيل المثال ينبغي على الجامعات ذات الطابع الإسلامي ، أن تتجه إلى تدريس العلوم باللغة العربية ، وأن تعمل جادة على وضع التراجم الأصيلة ، والمراجع الوثيقة بهذه اللغة ، وأن تنبذ تكريم النظريات التي لم تثبت علمياً ، والتي تعلم لأبناء المسلمين .. باعتبارها « حقائق علمية » ، كنظرية دارون ، وكثير من نظريات علم النفس والاجتماع .. إلخ

إن عمل الجامعات العربية لتحقيق هذا لهو خطوة عظيمة الشأن في سبيل جمع الأمة المسلمة من جديد على لغة القرآن ، لتقوم بديلاً عن لغات أعداء الإسلام التي تحتكر حقول التعليم العلمي في ديار المسلمين !

ولسنا ندعو إلى إهمال إتقان اللغات الحية في العالم المعاصر وخاصة ذات المستوى الباهر في علوم المادة ، والتي يوجب علينا الإسلام أخذها والتفوق فيها .

وإنما ينبغي التفريق بين مأخذين :

مأخذ الفناء في لغة العدو وعلومه ونظرياته وفلسفاته .. إلخ .

ومأخذ الانتقاء النافع ، الذي يقبل أو يرفض ــ على بصيرة ــ وفق معايير ثابتة ، وموازين مستنيرة ، وخاصة في الجامعات ذات الكيان الإسلامي البحت ، أو ذات الارتباط الإسلامي الواضح .

ومن تمام هذا ــ بل من لبه ــ أننا ندعو « جامعة الأزهر » ــ باعتبارها المعهد الإسلامي العريق ــ إلى إلغاء لفظ « **القانون** » من اسم كليتها العظيمة (**كلية الشريعة**) ، وإلى تغيير النظرة التي يدرس بها « القانون » الآن فيها ، إذ يجب أن تربى في خريجيها كل معاني رفضه وعدم مهادنته ــ باعتباره غير شريعة الله ــ لاأن تؤهلهم للحكم به بعد تخرجهم ، وتعيين الممتازين منهم في وظائف « وكلاء نيابة » وما شاكلها ، وهذه رشوة على الدين تأبّى عليها « الأزهر » طوال تاريخه ، وكذلك يجب أن يكون .. خاصة أنه قد زال عهد الطاغية الذي فرض هذا الأثم .

٦ ــ دعوة المسلمين في كل مكان ، إلى العمل الجاد للتخلص من آثار أعدائهم ، وخاصة في ميدان التشريع والقانون ، ونبذ التسويف وانتحال الأعذار الواهية ، كتلك الحجة الداحضة التي يتذرع بها أصحاب القانون الوضعي ومن على شاكلتهم من زعمهم أن الشريعة الإسلامية لايمكن تطبيقها الآن إلا بعد إعداد ، وتدرج ، وفترة انتقال .. إلخ .

ولقد رأينا في هذا البحث ، كيف أدخلت شرائع الكفار في بلادنا طفرة ، وبأوامر إدارية كما حدث في مصر سنة ١٨٧٥ ، ١٨٨٣ م ، وكما حدث في تركيا[1] عام ١٩٢٤ ــ ١٩٢٨ م مع أنها شرائع غريبة اللسان والمنشأ والمنزع ، ولم يقل قائل حينئذ بفترة

---

(١) كان آخر عهد تركيا بشريعة الإسلام صدور قانونها رقم ١٢٢٢ . في ١٠/٤/١٩٢٨ الذي ألغي كل أثر للشريعة ، بعد أن ظلت تحكم بها أكثر من خمسة قرون ! وإنها لعائدة إليها بإذن الله ، ولو كره الكافرون .

انتقال ، أو تدرج ، أو مراعاة الظروف ... إلخ .

أما شريعة الإسلام فهي دين هذه الأمم ، وكلمة ربها ، وهدي كتابه الذي يتعبدون بتلاوته بكرة وعشيا ، ثم هي قانونها العام والخاص طوال تاريخها ، وهي لم تنسلخ عنها إلا بكيد أعدائها ، وفي غفلة بعض سادتها وكبرائها !

ومن ثم فالعودة إليها أسهل وأيسر ، وهذا هو الأمر الطبيعي فضلاً عن أنه أمر الله الملزم ، وحكمه القاطع ، الذي تهون أمام تنفيذه كل عقبة ، إن وجدت ، ولا وجود لهذه العقبات في الحقيقة ، وإنما هي محاولات ومزاعم أعداء الله ، ثم ضحايا الغزو الفكري من أمتنا ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ التوبة : ٣٢ .

اللهم حقق وعدك الحق ، ووفق العاملين لدينك في كل مكان ، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم ، واجعل عملنا كله خالصاً لوجهك الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما .

كتبه الفقير إلى الله تعالى

عبد الستار فتح الله سعيد

مراجع البحث[1]

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ بعض كتب السنة المطهرة (ورد ذكرها في الهوامش) .
٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير (طبعة طهران) .
٤ ـ السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وزميليه .
٥ ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) .
٦ ـ نظرات فى الاستدلال القرآنى (للمؤلف) .
٧ ـ فقه السنة (جـ ١) للشيخ سيد سابق .
٨ ـ الغارة على العالم الإسلامي ، تأليف : أ . ل . شاتليه . نقله إلى العربية : مساعد اليافي ، ومحب الدين الخطيب (طبعة ثانية) (جدة) .
٩ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، د . محمد البهي (ط : ٤) .

(١) كل هذه المراجع مطبوعة في مصر إلا مانبه عليه منها ، وقد رتبت حسب ورودها في الهوامش .

١٠ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د . محمد محمد حسين (ط : ٢) .
١١ ـ أصول قانون العقوبات في الدول العربية ، د . محمود مصطفى .
١٢ ـ « قاسم أمين » د . ماهر حسن فهمي .
١٣ ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، د . أحمد عزت عبد الكريم وزملاؤه .
١٤ ـ نظرية القانون ، د . عبد الفتاح عبد الباقي .
١٥ ـ بين الأمس واليوم ، للشيخ حسن البنا (بيروت) .
١٦ ـ التربية الدينية التي يحتاجها العالم الإسلامي ، د . إبراهيم اللبان (رسالة صغيرة نشرت ملحقاً لمجلة الأزهر عام ١٣٩٣ هـ) .
١٧ ـ التبشير والاستعمار ، د . مصطفى الخالدي ، وعمر فروخ (ط : ٥) بيروت .
١٨ ـ وجهة الإسلام ، تأليف المستشرق « جب » وآخرين . ترجمه محمد عبد الهادي أبو ريدة .
١٩ ـ نقض (كتاب في الشعر الجاهلي) تأليف الشيخ محمد الخضر حسين .
٢٠ ـ المنهاج القرآني في التشريع ـ (رسالة دكتوراه لصاحب هذا البحث) لم تطبع .
٢١ ـ المعاملات في الإسلام (للمؤلف) .
٢٢ ـ مبادىء نظام الحكم في الإسلام ، د . عبد الحميد متولي .

٢٣ ــ الجهاد في سبيل الله ، لأبي الاعلى المودودي .
٢٤ ــ القانون الإسلامي وطرق تنفيذه ، للأستاذ المودودي (دمشق) .
٢٥ ــ موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين ، تأليف شيخ الإسلام مصطفى صبري .
٢٦ ــ الحمد لله هذه حياتي (جـ ١) الدكتور عبد الحليم محمود (طبعة ٣ ــ ١٩٨٥ م) .
٢٧ ــ مقدمة ابن خلدون .
٢٨ ــ أباطيل وأسمار ، محمود محمد شاكر .
٢٩ ــ دوريات متفرقة مثل : (مجلة الأزهر ، مجلة الثقافة المصرية) .

* * *

الفهـــرس

الموضــوع	الصفحـــة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

الموضــوع	الصفحــة

تـم بحمد الله

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٩٩٣ / ٨٧

الترقيم الدولى ١ - ٢٧ - ١٤٢١ - ٩٧٧

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN